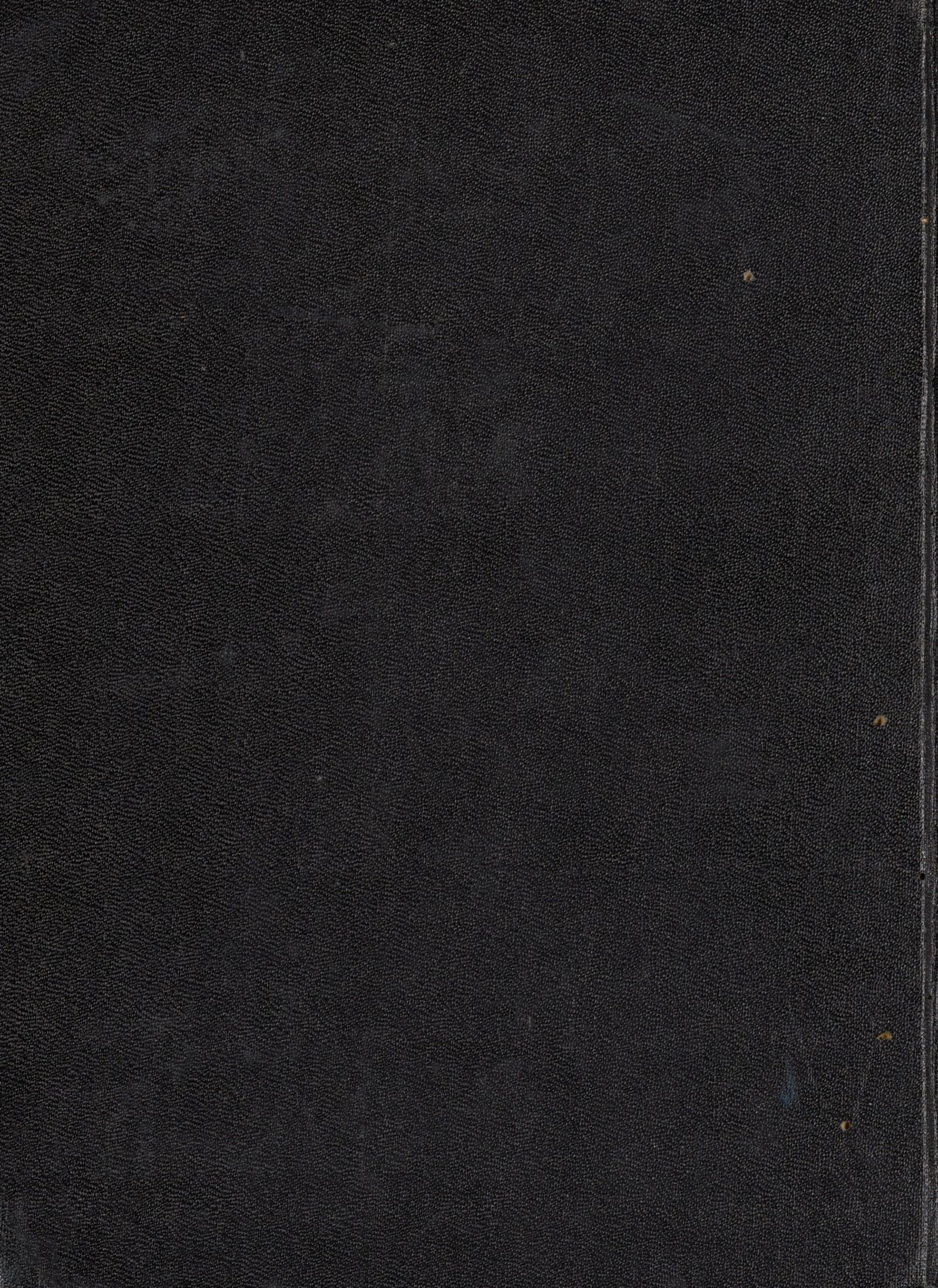
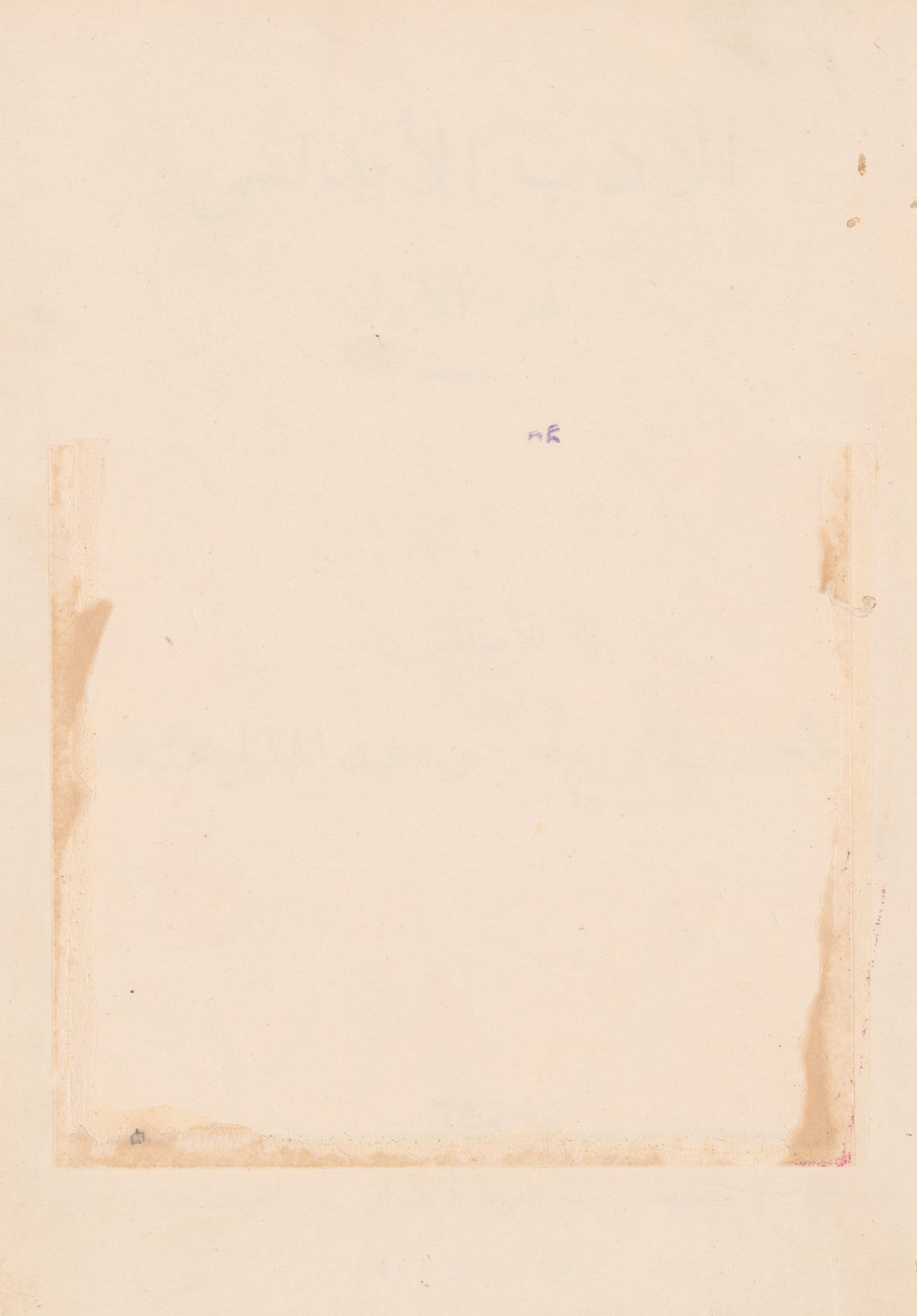
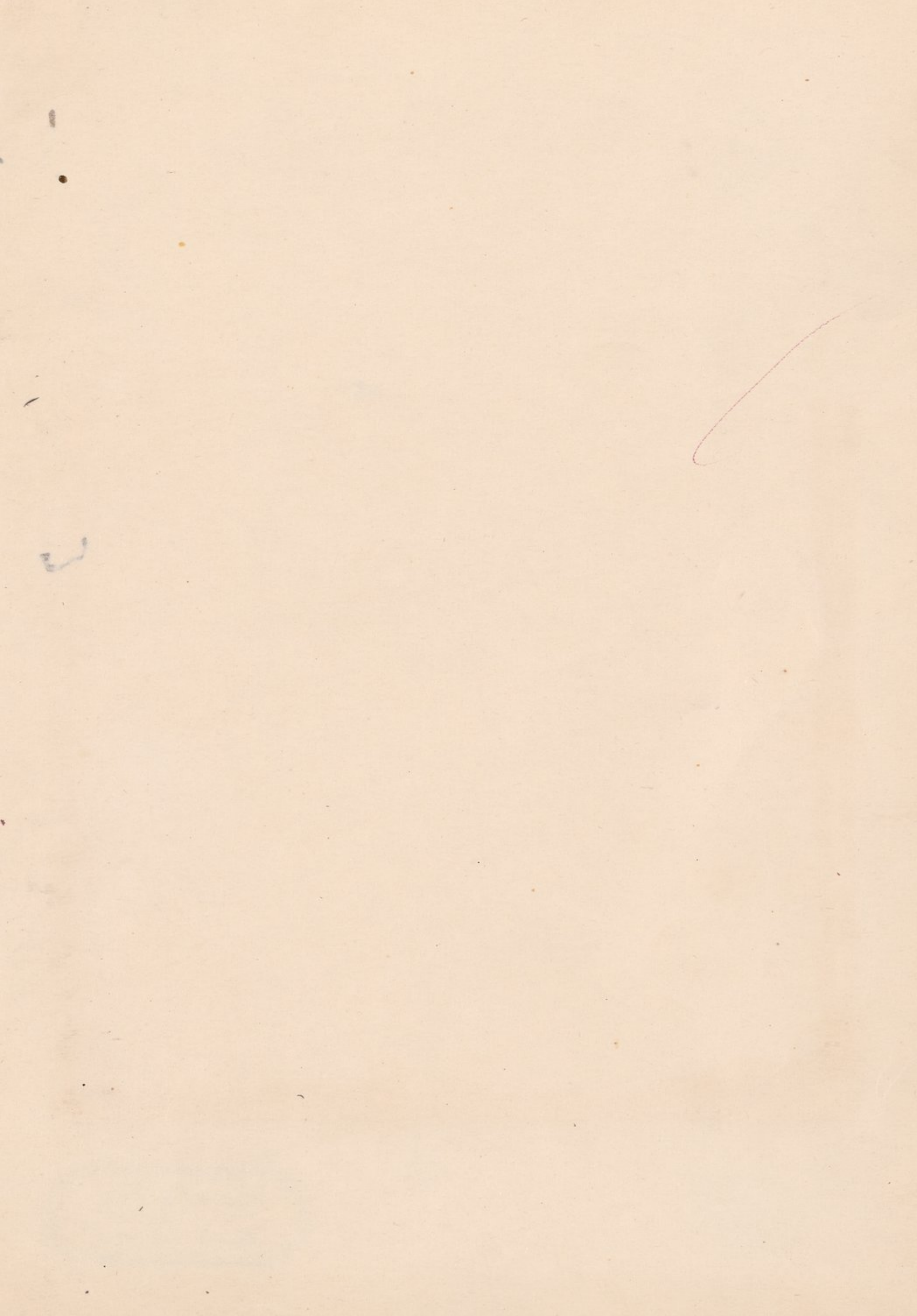






الأدب الأندلسي

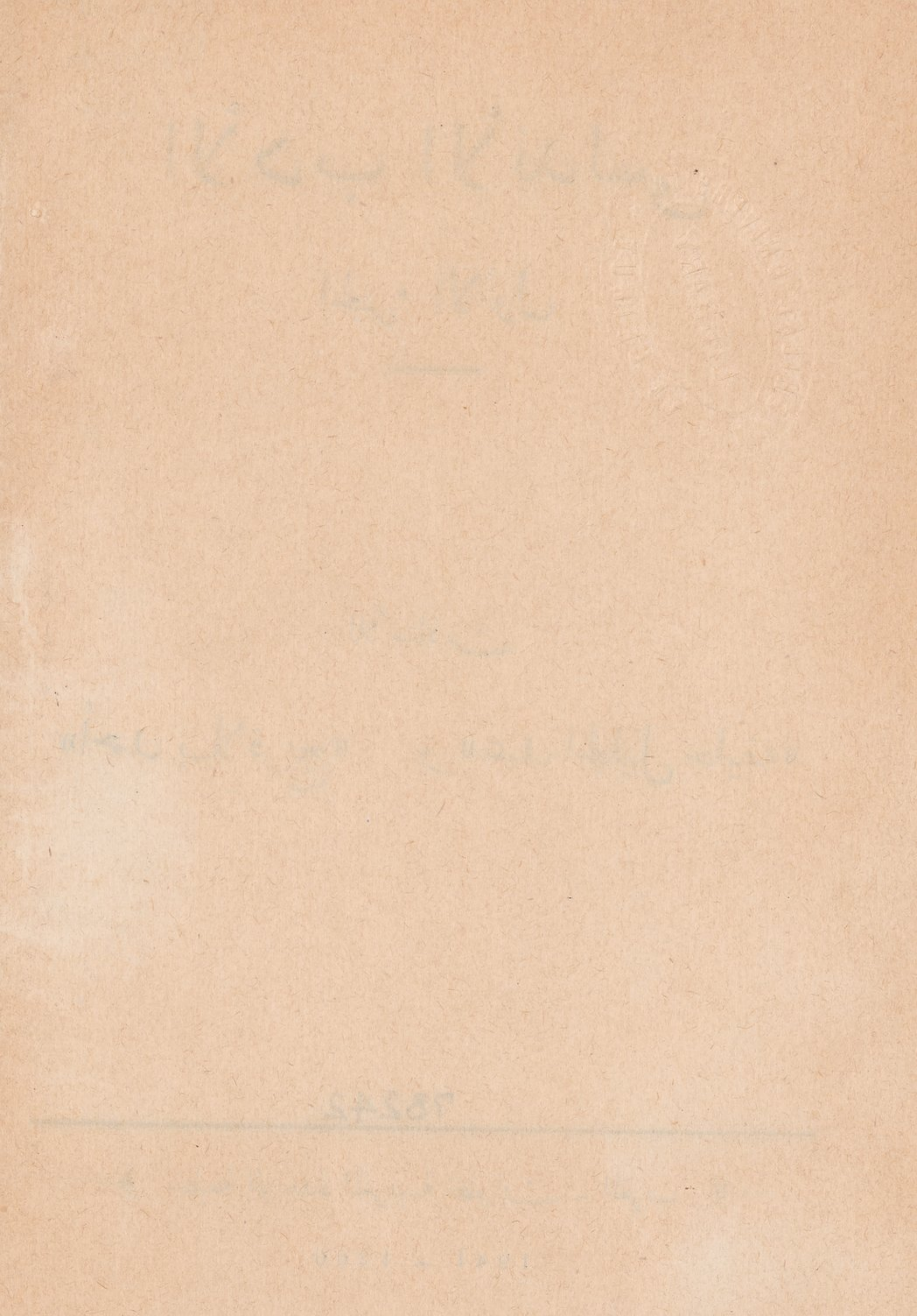
الجزء الأول

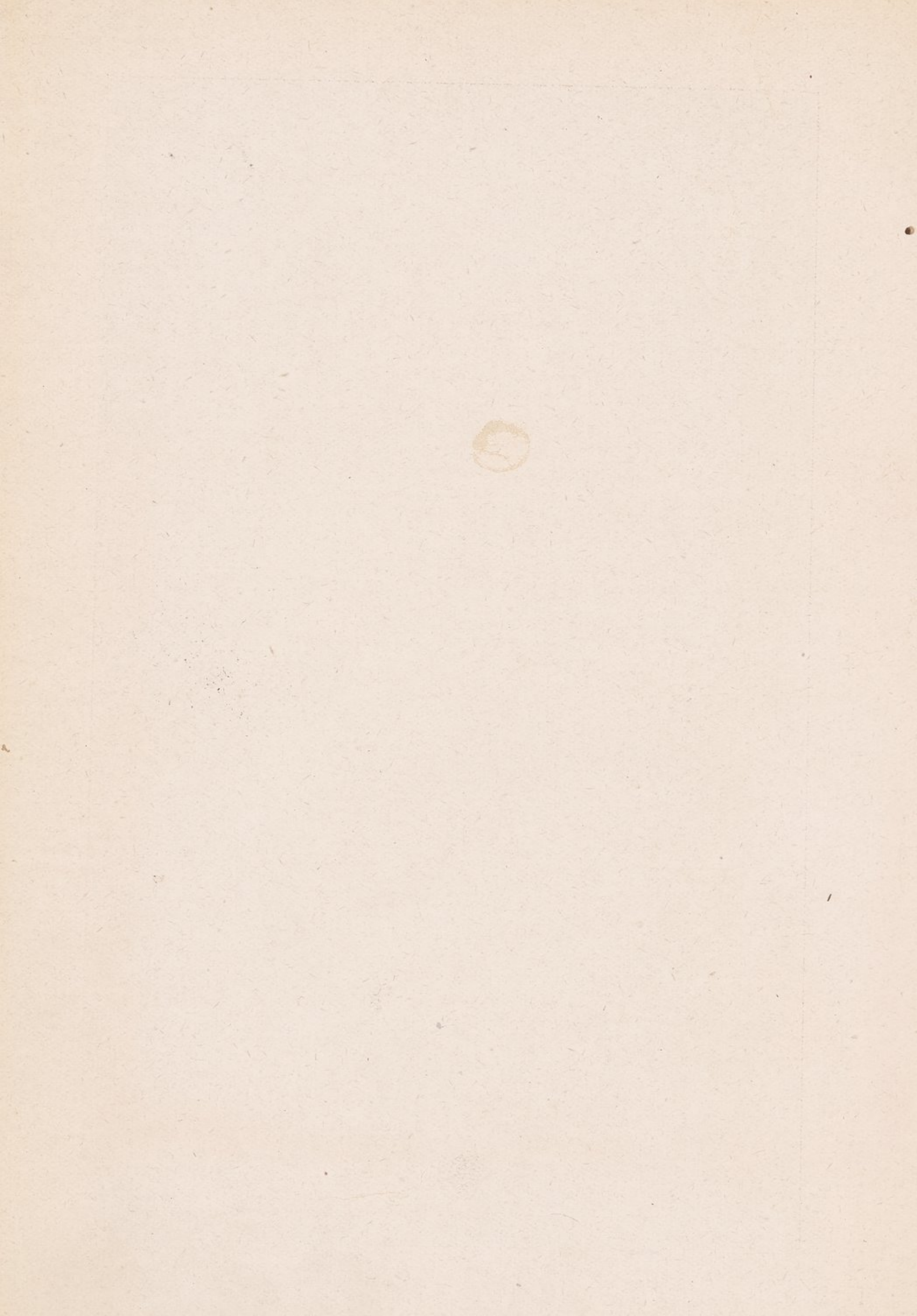
للأستاذين

«أحمد بلافريج» و «عبد الجليل خليفة»

مطبعة الوحدة المغربية تطوان - المغرب

1941 - 1360






هدية
إلى أستاذي عبد الجليل
خليفة
مع حبي وتقديري
أمير الريف
المهدي بن الحسن

الاهداء

الى صاحب السمو أمير الريف المحبوب

«مولانا المهدى بن الحسن»

زهرة الأمل الباسم، وفخر الشباب الناهض، مثال الجد والمثابرة

وتحصيل العلوم، عنوان الأخلاق القويمة والعواطف النبيلة.

يهدى نفحة من نفحات الأندلس

خادمكم
أحمد بلافريج

خادمكم وغرس نعمتكم
عبد الجليل خليفة



الاهـــداء

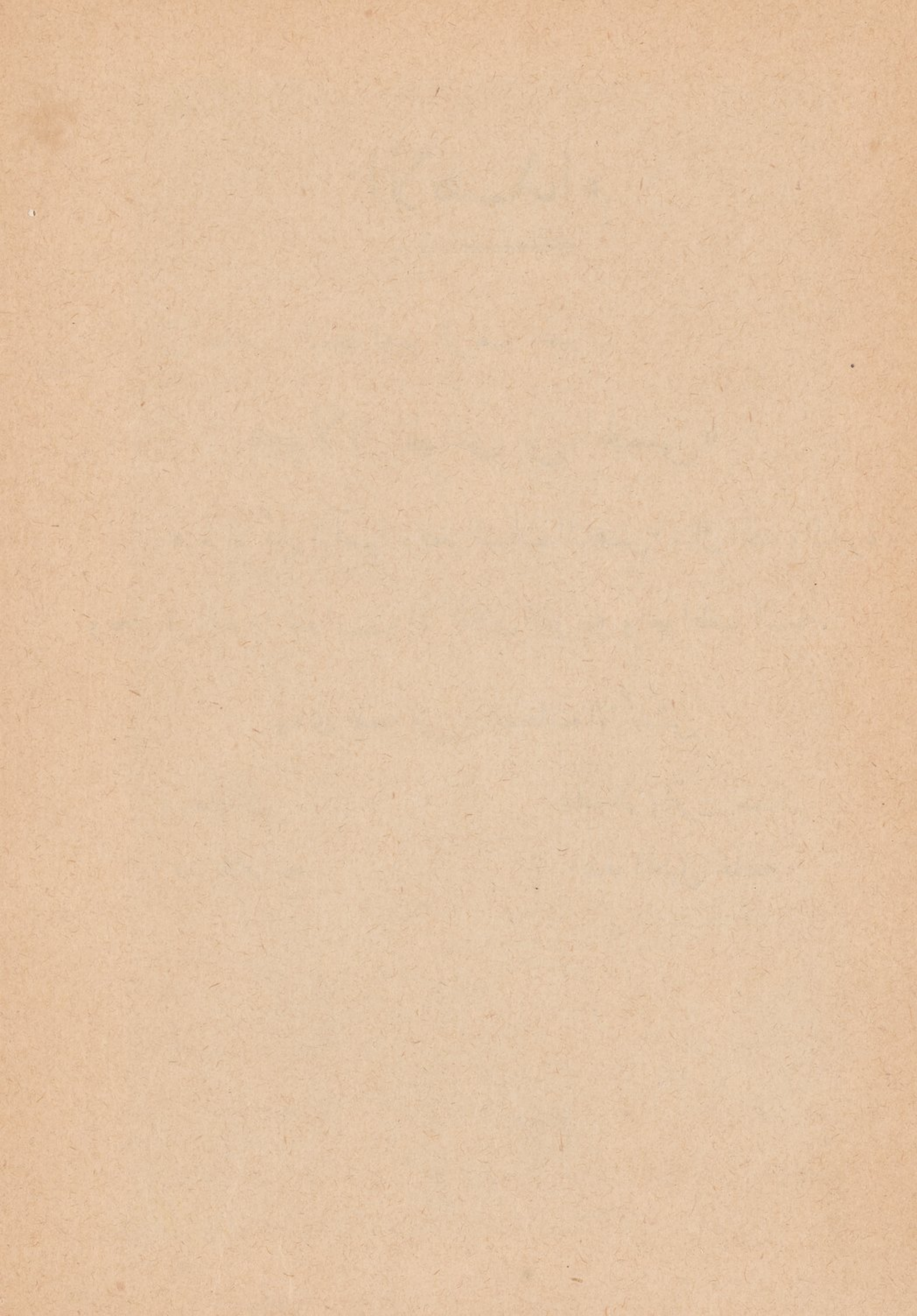
الى صاحب السمو أمير الريف المحبوب

«مولانا المهدى بن الحسن»

زهرة الأمل الباسم، وفخر الشباب الناهض، مثال الجد والمثابرة وتحصيل العلوم، عنوان الأخلاق القويمة والعواطف النبيلة.

نهدى نفحة من نفحات الأندلس

خادمكم	خادمكم وغرس نعمتكم
أحمد بلافريج	عبد الجليل خليفة



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ونستعين بك ونستهديك ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك سر كمال الانسانية وخاتم النبيئين الذى بعثته بالهدى ودين الحق.

وبعد : فقد انتهزنا فرصة وجودنا بمدريد وترددنا على قاعة المطالعة بالمدرسة العربية للمستشرقين Escuela de Estudios Arabes وكتبنا هذه الفصول الأولية - على قدر ما فى استطاعتنا - لتكون مقدمة لمن أراد بحثا شاملا واستقصاء تاما لتطور الحياة الفكرية فى اسبانيا الاسلامية اذ فى اعتقادنا أن الأدب وخاصة الأندلسى ما زال فى أشد الحاجة الى المجهودات العظيمة والبحث والتنقيب المتواصل حتى ينجلى الغموض الذى أحاط ببعض نواحيه.

وقد حاولنا أن ننظر الى القضايا الأدبية بعين منصفة وصدر مأمون ورأى معتدل ونفس نزيهة مخلصة تزن الأمور بميزان الحكمة حتى لا نبتعد عن محجة البينة والجدد الواضح رغبة منا فى كشف الحقائق المحجوبة واظهارها سافرة الوجه دون مراءاة أو مداهنة أو محاباة.

ومع أننا قد توخينا فى كتابنا الدقة واستنفدنا الجهد وعمدنا الى استخلاص الحقائق الناصعة التى ارتأيناها - فان الكمال لله وحده - وشفيعنا الاجتهاد فيما أخطأنا فيه وحسبنا براءة النفس وحسن النية «انما الاعمال بالنيات» وما قصدنا الا الخير وما توفيقنا الا بالله.

كان فى نيتنا أن نصدر كتابا شاملا لتطور الحياة الفكرية والشعر والكتابة وتراجم الشعراء والكتاب وتاريخ العلوم والفنون ثم رأينا أن جزءا واحداً يضم بين دفتيه هذه الموضوعات قد يكون كبيراً فعقدنا النية على التجزئة وفق منهج شرعناه بحيث يكون تطور الحياة الفكرية ومنتخبات الشعر فى الجزء الأول والموضوعات الأخرى فى أجزاء متتالية ان شاء الله.

قد اخترنا منتخبات الشعر ممثلة لكل فترة من فترات الحياة الأدبية فى اسبانيا الاسلامية : الدولة الأموية، والدولة العامرية، فملوك الطوائف ثم دولة المرابطين والموحدين ثم شعراء غرناطة وعصر بنى الأحمر ليكون الشعر صورة صادقة ومرآة صافية يرى الناظر فيها مصداق ما ذكرناه عن تطور الحياة وممثلا لشخصيات الشعراء الذين ذكرنا أسماءهم ومذاهبهم وممهدا لدراستهم دراسة تحليلية.

وقد اخترنا الشعر أيضا جزلا رائقا سهلا يقل فيه الغريب وشرحنا بعض الكلمات اللغوية مع ترجمة مختصرة لكل شاعر والقارىء

يستطيع الرجوع الى المعاجم اللغوية ليبحث عما يروم البحث عنه من معانى الأشعار.

انتهينا من تأليف الكتاب فتقدمنا به الى ظل ظليل وكنف كريم الى ناصر العلم والأدب والدين حضرة صاحب السمو الملكى مولانا «الحسن بن المهدى» خليفة حضرة صاحب الجلالة مولانا «محمد بن يوسف» - أعزه الله - فشملنا بعطفه ورضاه ورأى بثاقب نظره - حفظه الله - أن يشجعنا على العمل فأمر بطبع الكتاب.

وقد اغتبطنا بصنيعه جد اغتباط وقابلناه بالشكر ولكن كيف يشكر الشاكر وأنّى لنا أن ننهض بواجب الانعام وأن نقضى حق النعمة ونقوم بحرمة الصنيعة وقد فاقت الوصف وطالت الشكر.

وأملنا أن يسمح لنا بأن نرفع الى سدته الملكية العالية آيات الشكر والاخلاص واننا نبتهل الى الله أن يبقيه ذخراً للعلم والأدب والدين.

كما نتقدم بالشكر الخالص الى حضرات المستشرقين أساتذة المدرسة العربية بمدريد وعلى رأسهم شيخهم الجليل أسين بلاسيوس Asin Palacios.

ولا يفوتنا أن نشكر صديقنا الفاضل الفنان الأستاذ حسين ابراهيم لرسمه وكتابته عنوان الكتاب.

والله نسأل أن يوفقنا الى ما فيه صلاح ديننا ودنيانا. المؤلفان:

أطوار الحيـاة الفكرية

فى إسبانيا الاسلامية

فتح الأندلس

فى الزاوية الجنوبية الغربية من القارة الأوربية، وفى أقرب بقعة أراد فيه الشاطئان الافريقى والأوربى أن يتلاقيا، لولا أن دهمتهما صرامة البحر الأبيض المتوسط، وحالت بينهمـا أمواجه، تقع شبه جزيرة، لها مميزات احتفظت بها، منذ كانت الحيـاة وليدة، تلك هى مـا عرفها العرب بجزيرة الأندلس وما عرفها الجغرافيون الحديثون بشبه الجزيرة الابيرية.

والأندلس كلمة تخفق لسماعها قلوب العرب، وتبعث فى نفوسهم ذكرى الافتخار والعظمة، بما خلفه الأجداد من الآثار الباقية الخالدة، ذكرى الافتخار بما ترنموا به من الألحان العذبة الساحرة، المنبعثة من قلوب عمرتها شعرا وفنا طبيعة تلك البلاد الضاحكة المستبشرة بأزهارها اليانعة، وهوائها العاطر العليل، وخمائلها الكثيفة الجميلة، ولله در شاعرها إذ يقول:

فى أرض أنـدلس تلتـذ نعمـاء * ولا يفارق فيها القلب سراء

وكيف لا يبهج[1] الأبصار رؤيتها * وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء
فللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتثار لآل الطل أنداء
وإنما أرج الند استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
قد ميزت من جهات الأرض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها إذ تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذارى[2] ما بها عوض * فهى الرياض وكل الأرض صحراء

والأندلس كلمة تبعث فى نفوس العرب حنينا إلى منتدى الأدباء، ومجالس الفقهاء، ومواطن الحكماء التى أزدهرت فى بلاد خصها الله «من الريع وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية وكثرة السلاح، وصحة الهواء... بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها[3]، ثم سطا عليها الدهر، وتجهم لها الحظ، فسكنت

---

(1) أبهجه الأمر سره

(2) خلع فلان عذاره ومعذره إذا تشاطر

(3) أزهار الرياض (ص 61 ج 1 - نشر المعهد الخليفى)

الروح العربية الثائرة، فأنطفأ بسكونها ذلك المنار الذى كان هدى للناس، وصمتت تلك الحلوق العذبة بعد أن أطربت الجزيرة ثمانية قرون .



ما كاد الاسلام يتسرب الى قلوب المغاربة، حتى حملوا لواءه، واشتاقت نفوسهم الى نصرته، ونشر تعاليمه، فتطلعوا الى ما حولهم، فرأوا على مدى أنظارهم، وملتقى بصرهم، شاطىء الأندلس فعبروا اليه فى ثلاثمائة فارس من العرب وعشرة آلاف من البربر، وانقسم الجيش الى قسمين : قاد أحدهما طارق بن زياد، ونزل على صخرة سميت باسمه (جبل طارق) وقاد القسم الآخر طريف بن مالك النخعى، ونزل بمكان مدينة طريف Tarifa .

«وعلى قيد فرسخين من قادس تجاه بلدة شريش Jerez على ضفاف وادى لكه (1) تلاقى العرب والقوط أو تلاقى الاسلام والنصرانية وذلك لليلتين بقيتا من رمضان عام 92هـ» ألتقى جيش المسلمين يحمل قلوبا فتية عامرة بالايمان يحارب عن عقيدة امتزجت بلحمه ودمه «والحماسة تغلى فى صدور الجند وكلهم اخلاص لقائدهم الأكبر طارق وفوق رءوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسى العربية وقد تقلدوا السيوف

(1) Guadalete أما اليوم فيقال إن المعركة كانت على شاطىء Rio Barbate

واعتقلوا الرماح يرمون الى غرض واحد إما الفوز وإما الموت فى سبيل رفع لواء الدين وإعلاء كلمة الإسلام» بجيش لذريق الفاقد لقوته المعنوية، فدارت الدائرة عليه وقتل لذريق أثناء المعركة، ولم يلق المسلمون، بعد هذه الموقعة صعوبة فى فتح البلاد لانحلال المجتمع (1) وكثرة النزاع، والاضطراب، والفوضى المنتشرة بها، وأخذت المعاقل والحصون تسلم نفسها للفاتح الجديد الذى أظهر تسامحا وعدلا، فخفق العلم الإسلامى على برشلونة شرقا، وحصون قشتالة جهة الجوف واخترق أبطال الاسلام جبال البرانس، ودخلوا أرض فرنسا حتى نهر «اللوار» ودانت البلاد لخلافة أمراء المؤمنين بدمشق يتولاها من قبلهم الولاة أو من قبل الوالى فى أفريقية من عام (92 - 138 هـ) (711 - 755م).

☆

☆ ☆

---

(1) كان المجتمع منحطا وخاصة المجتمع الدينى ويعتبر رجاله فى الطبقة الأولى جاء في كتاب S. P. Scott: "History of the Moorish Empire in Europe" ص 173 ترجمة صديقنا الأستاذ محمد وهبى «أن القوانين التى كانت تصدرها المجالس من حين لآخر وكان الغرض منها فرض القيود على سلوك رجال الدين المشين تدل دلالة واضحة أكثر من دلالة التاريخ ذاته على درجة انحلال الأخلاق التى أنحط اليها المجتمع الدينى.

الحيـاة العلمية قبل الفتح الاسلامى

قبل أن نتكلم عن المراحل التى سلكتها اللغة العربية فى انتشارها، وانبثاق فجر الثقافة الاسلاميـة فى الأندلس، رأينا من المناسب أن نقول كلمة عن الحياة العلمية بين سكان البلاد وقت الفتح.

فاسبانيا كانت فيمـا سبق من أهم الولايات فى امبراطوريـة روما[1]، وأزدهرت فيهـا الآداب اللاتينية وأنجبت مثـل مارتيال Martial و لوكانو Lucano، والكاتب الفيلسوف سينيكـا Seneca الى غير هؤلاء.

وقـد فتح العرب فى الشرق بـلادا وجدوا أهلهـا على أثـارة[2] من علم وحضارة فأخذوا منهم، وتأثروا بأسباب معاشهم وعمرانهم، فهل وقع شىء من هذا فى اسبانيا؟ وهل كان للاسبـان أثر فعال فى تكوين الحياة الأدبية والعلمية التى ازدهرت فى بلادهم على عهد العرب؟

هذا موضوع لم يشمله بحث العلماء مفصلا بعد، ولم تتناوله عناية

---

(1) حكم الرومان إسبانيا فى سنة 134 قبل الميلاد وأصبحت البلاد خاضعة لنظم رومة الاجتماعية وسننها القانونية.

(2) هم على أثارة من علم أى بقية منه يأثرونها عن الأولين.

المؤرخين بالتحرى والانصاف المطلوبين عن كل بحث علمى، بيد أن هناك شذرات مبعثرة يمكن الرجوع اليها.

حاول المستشرق الاسبانى سيمونيه Simonet أن يعالج هذا البحث فى كتابه عن تاريخ المستعربين المسيحيين فى اسبانيا بشىء من الإسهاب الا أن هذا المؤلف - من دواعى الأسف - مال إلى الناحية العاطفية فحاد عن الجادة وأتى بنتائج لا تستند على حجة، ولا تقوم على برهان معقول أو منقول، اذ يزعم مثلا أن وسائل العمران، وأسباب الثقافة أخذها العرب من المسيحيين الاسبان، كما يؤكد أن هؤلاء الاسبان كانوا أهل حضارة ومدنية وعلم احتفظوا بها بعد استعرابهم. فهم اذاً مصدر تلك المدنية الرائعة التى أضاء نورها سماء الأندلس تحت راية الاسلام.

هذا قول لا يحتاج الى رد - كما أن ضوء النهار لا يحتاج الى دليل - اذ بعد اكتساح القوطيين للبلاد أخذت شمس الثقافة الرومانية فى الغروب شيئاً فشيئاً ودخلت اسبانيا فى ظلام حالك من الجهل، ولا تكاد تعثر على مؤلف يستحق الذكر مدة قرون، غير تلك المعلمة التى ألفها القديس (سان ايزيدورو San Isidoro أسقف أشبيلية وقد ألفت قبل الفتح العربى بقرن واحد وكتبت بلغة لاتينية عامية ركيكة وحظ البحث اللاهوتى فيها كبير وتضمنت شيئاً قليلا من آداب الرومانيين

وشذرات عن علوم الطبيعة والرياضة، وليس بها الا لمحات قصيرة عن فلسفة الاغريق.

اعتبرت هذه المعلمة أهم أثر يمكن الرجوع اليه قبل نشأة الثقافة الأندلسية الإسلامية، وهذه المعلمة ان دلت على شيء فإنها تدل على أن أفراداً من رجال الكنيسة حافظوا على بقايا قليلة من علوم الأوائل، ولكن هؤلاء الرجال كانوا غرباء فى بيئتهم لاصلة بينهم وبين المجتمع الذى يعيشون فيه ولا ارتباط.

وقد وجدت مع هذه المعلمة مجادلات لاهوتية وأبحاث لفظية فى مذكرات صغيرة لا تنطوى على حكمة ولا تضم بين دفتيها علماً يصح أن يقال عنه إنه كان أسساً للثقافة الأندلسية الاسلامية أو إنه أثر فى تكوينها أثراً فعالا.

فهل يمكن لمسيحى اسبانيا أن يؤثروا فى غيرهم بما ليس عندهم؟!

هذا ما حمل الأستاذ المستشرق أسين بلاسيوس Asin Palacios على القول بأن التقاليد العلمية كانت قد انقطعت قبل اتصالها بالاسلام وأن ثقافة القوطيين كانت ضعيفة وفقيرة مبنية على التوراة وبعض أقوال الكنيسة فقط «ولجهلها تعاليم الفلسفة الاغريقية لم يمكنها أن تبعث فى الاسلام تلك الروح التى نقلتها اليه مدنيات سوريا وفارس ومصر».

ويستدل الأستاذ أسين بلاسيوس Asin Palacios على ما كان يسود الوسط المسيحى فى اسبانيا من الجهل بأن أبا محمد بن حزم صاحب كتاب الملل والنحل وأعرف الناس - فى نظره - بتاريخ التعاليم المسيحية لم يذكر القديس (سان خوليان) San Julian الا مرة واحدة مع تحريف ما نقله عنه مما يدل على أن تآليف هذا القديس لم تكن معروفة. هذا بينما كان ابن حزم شديد الاطلاع على علماء اللاهوت فى الشرق ومذاهبهم.

وعندما تعرض بونسوا سبيريان Poncois Severien الى عمل الأمم الكاثوليكية وطمسها لمعالم المدنية الأندلسية العربية قال ان ذلك مشابه تماماً لما قامت به الأمم القوطية من تخريب المدنية الرومانية فى الأندلس ووقعت البلاد فى فوضى وجهالة وضلالة قال: «ان[1] احراق كتب العرب التى وجدت فى اسبانيا بأمر الكردينال شيميناس Ximenez قد كان السبب فى الجهالة التى أحاطت بتاريخ العرب والاسلام عند الاسبانيين وقد تتبع ديوان التفتيش المشهور كتب المسلمين بالاحراق والاتلاف باغراء أساقفة النصارى الى الحد الذى أضر ضرراً فاحشاً بالصناعة والزراعة والمعارف والفنون مما كان خلفه

(1) الحلل السندسية (ج 3 ص 403)

لنا العرب الحكماء العاملون على درجة عالية فجرى فى اسبانيا بعد سقوط الدولة العربية ما جرى فيها بعد سقوط الدولة الرومانية من التدنى والانحطاط مع الفرق بأنه جاء بعد الرومان قبائل القوط العاتية الذين لا ينتظر من مثلهم احياء المدنية وأنه جاء بعد العرب النصارى الكاثوليكيون الذين يزعمون أنهم محبون للعلم وناشرون للأنوار».

ويعضد هذا ما كتبه القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم قال مشيراً الى الحياة العلمية فى اسبانيا «كانت الأندلس قبل ذلك فى الزمن القديم خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها أحد من الاعتناء به الا أنه يوجد طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية اذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة الى أن فتحها المسلمون فتمادت على ذلك أيضا لا يعنى أهلها بشىء من العلوم الا بعلوم الشريعة واللغة الى أن توطد الملك لبنى أمية بعد عهد أهلها بالفتنة فتحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلوم وتنبهوا لإيثار الحقائق.

ان ضعف الثقافة القوطية وعجزها عن كل تأثير مباشر فى الفاتحين لا يجادل فيه من درس تاريخ اسبانيا قبل الفتح الاسلامي وعلم شيئاً

عن حياتها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية [1].

وذلك ما يبعثنا على القول بأن الثقافة الأندلسية عربية فى لحمتها وسداها وان لم يكن العامل المسيحى منعدما فى تكوينها فهو ضعيف الأثر جداً. قال الأستاذ لين بول Lean Paul : «أنشأ العرب حكومة قرطبة التى كانت أعجوبة القرون الوسطى بينما كانت أوربة تتخبط فى ظلمات الجهل فلم يكن ثمة سوى المسلمين من أقام بها منار العلم والمدنية.

اذاً فمتى أنبثق فجر هذه الثقافة ؟ وما هى المراحل التى سلكتها اللغة العربية فى انتشارها ؟

---

(1) قال أستاذنا الفاضل حسن بك خليفة في كتابه العرب فى اسبانيا يصف حال الشعب أواخر حكم القوط «.. وساد الفقر والجوع بين طبقات الشعب بسبب الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم الأشراف وأمراء الاقطاعيات وكبار رجال الدين ومما زاد الطين بلة انقسام الامراء على أنفسهم فقامت المنازعات وعمت البلاد الحروب الأهلية والفتن الداخلية وانقسم الأهالى إلى أحزاب وشيع وهجرت الصناعة والزراعة ووقفت حال التجارة فأزدادت الحالة الاقتصادية تحرجاً»

عوامل انتشار اللغة

«لم تكن الفترة الأولى أى قبل ورود عبد الرحمن بن معاوية صالحة للدرس والتعليم أو محببة لهجرة الشعراء والأدباء من الشرق إلى الغرب» لأن نصفها الأول كان مملوءا بالغزو والفتح ونصفها الثانى شعلة من الفتن الداخلية بين الفاتحين. قبيلة ضد قبيلة، ومغاربة ضد عرب، ويمنيون ضد مضريين، وبظهور هذه العصبيات الممقوتة احييت الاحن والضغائن الجاهلية بين القواد وتعصبت كل قبيلة لقائدها حتى بلغ عدد الولاة فى هذه المدة 24 واليا.

ومما لا شك فيه أن آثار الجيش الفاتح فى استعراب الجزيرة كانت ضعيفة فأكثره من المغاربة وهؤلاء لم تتمكن اللغة العربية من نفوسهم ولم يملكوا ناصيتها لقرب عهدهم بالاسلام [1].

بيد أن هذا الجيش كان يشتمل على فئة قليلة من التابعين رواة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى طائفة من حفظة القرآن «أهل تقى وصلاح كانوا يعلمون القرآن للناس بغية أجر ينالونه فى الدار الآخرة فأخذ عدد التلاميذ يزداد شوقا لمعرفة الدين الجديد».

---

(1) أما خطبة طارق بن زياد فى سهل شريش Jerez التى تدل على رسوخ ملكة البيان فيذكر بعض الأدباء بأنها ليست له.

فكانت تلك مرحلة من مراحل استعراب الجزيرة ونواة التعليم بالأندلس.

جاءت بعد ذلك قبائل عربية مع الأمير بلج بن بشر فأنزلت في كور مخصوصة أنزل أهل دمشق البيرة وجلهم من مضر ونزلت ريه جنود الاردن وجلهم من اليمن ونزل أهل حمص شذونه ونزلت بعض قبائل المغرب بلنسية والجزيرة مع أخلاط من يمنيين وعدنانيين ونزلت جند مصر باجة وتدمير.

وبعد أن ألقت هذه القبائل عصا التسيار واستقر بها المقام امتزجوا بالقوط والاسبان واليهود بالمصاهرة والتسرى. فنشأ جيل جديد له مميزاته وله عقلية هى نتاج من العقلية العربية والعقلية القوطية أو الاسبانية وأخذ العرب فى نشر تعاليمهم وآدابهم فعملوا على تشييد أعظم حضارة تفخر بها القرون الوسطى فى الأدب والفن. قال أستانلى لانبول Stanley Lanpoul الانكليزى «ان العرب الاجلاف (كذا) لأول نزولهم باسبانية قد تهذبوا وتمدنوا بالأندلس فيما بعد وباستعدادهم الفطرى مالوا الى التأنق والرفاهية والتحقق بالحضارة العالية وعكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الأدب فكانت أذواقهم فى أسمى مكانات السلامة، واحساساتهم فى أقصى مكان الرقة كما هو شأن من تحقق بالمدنية وذاق حسن المعيشة وغلب عليهم التأمل والشعر

فكانوا يؤدون من الجوائز على منظومة واحدة ما يكفى لميرة كتيبة كاملة ولم يكن الأمير الظالم منهم والملك الغاشم السفاح يأنف من الآداب والمعارف فالفصاحة والموسيقى وسائر فروع العلم والأدب من الأمور الطبيعية عند هذه الأمة وقد أوتوا ملكة الانتقاد والتمييز ولطف الذوق فى نقد أجزاء الكلام وتفاصيل القول » [1]

فانتشرت اللغة العربية وقويت مكانتها حتى استهوت ببلاغتها طائفة أتقنتها وحذقتها وإن لم تقر بدينها. وكثر استعراب المسيحيين حتى أدى الى شكوى رجال الدين كما سترى.



(1) الحلل السندسية ج 3.

عصر بنى أميـة

بينما كانت عوامل الاستعراب تعمل عملها، والوسط الاسلامى ينتظم ويستقر وقد أعيته عواصف الفتن والاضطرابات وقتئذ.أخذ يتطلع الى منقذ ينقذه من نارها بتوحيد الأهواء وجمع الشمل واقامة ميزان العدل بين العصبيات المتنافرة والنزعات المتعادية .

حدث فى الشرق حادث كان له فى سير الحوادث الأثر العميق، ونعنى بذلك قيام دولة بنى العباس على انقاض الدولة الأموية وتقتيلها لهم، ومحاولة القضاء على أبنائها وعمل الخناجر فى رقاب النساء والأطفال والرجال.

فرَّ من هذه المذابح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان (138 ـ 172)ه (755 ـ 788)م الى اسبانيا.

فعثرت الأندلس على ضالتها المنشودة ووجدت فى عبد الرحمن الرجل الذى كانت تنتظره والحاكم الذى كانت تتطلع اليه الأبصار.

ما كادت قدم عبد الرحمن بن معاوية تطأ أرض المغرب حتى رأى بثاقب نظره وذكائه أن الفرصة سانحة لاقامة دولة لبنى أمية فى الأندلس تضارع دولة بنى العباس فى الشرق.

ولا شك أن تلك النفس العالية والأخلاق السامية التي امتاز

بها عبد الرحمن هى نتيجة معاركة الدهر له فى شبابه الأول والمحن والشدائد التى تذوقها عند ما شاهد تعذيب قومه واذلالهم بعد أن بلغوا قنـة[1] المجد والعظمة.

ان عبد الرحمن البطل سوف لا يستقر له قرار ولا يهنأ له بال حتى يعود بنو أمية الى مثل عرش فقدوه ومجد سلبوه فما كاد يصل الى الجزيرة الأندلسية عام 138هـ (756) م حتى أصبح أمير قرطبة وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره وكون لنفسه ملكاً عضوداً توارثه تسعة عشر أميراً ليس فيهم الا عالم أو أديب،

أما همته ومضاء عزيمته فلا نجد أبلغ مما وصفه به أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور لجلسائه حينما سألهم عن صقر قريش فقال بعضهم «معاوية» وقال قائل «عبد الملك بن مروان.» وقال ثالث «أمير المؤمنين المنصور» فقال:

«صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحار وقطع القفار ودخل بلدا أعجميا منفرداً بنفسه فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين ونال ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، ان معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان وذللا له

---

(1) قنة الجبل أعلاه يقال الأنوق تبيض فى قنـة الجبـل وفى قنن الجبال.

صعابه وعبد الملك ببيعة تقدم عقدها وأمير المؤمنين يطلب عترته[1] واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد بأمره مستصحب لعزمه وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين».

وروى المقرى فى نفح الطيب (أن عبد الرحمن كان بليغا مفوها شاعراً محسناً سخياً) وكان يقول: «ان أعظم ما أنعم الله به علىّ بعد تمكنى من هذا الأمر القدرة على ايواء من يصل الى من أقاربى والتوسع فى الاحسان اليهم»

فلا غرابة فى توافد بنى أمية ومواليهم وكتابهم عليه لما علموا بأمره ومنهم عبد الملك بن عمر بن الحكم قدم فى عشرة من رجاله وعبد الملك بن بشر وأبو محمد جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز وسليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر وغيرهم وكلهم أدباء وشعراء فكون منهم حاشيته وبلاطه واستفادت البلاد بقدومهم اذ حملوا اليها كثيراً من آداب الشرق ومعارفه ووضعوا بذور تلك النهضة والحياة الفكرية التى ازدهرت فى الأندلس بعد سنين.

---

(1) عترة الرجل: أقرباؤه من ولده وولد ولده وبنى عمه وفى حديث أبى بكر نحن عترة رسول الله وبيضته التى تفقأت عنه.

على أن هذه الحركة عضدت[1] برحلة الأندلسيين الى الشرق لحج بيت الله الحرام والاتصال بمعاهد العلم والسماع من شيوخ الأدب والاغتراف من مدارس الشرق الناهضة التى تبوأت مكانتها بفضل بنى العباس وأصبحت عضد الحركة الفكرية الخصبة ومستقر الحياة الأدبية الرائعة القوية.

رأى هؤلاء الحجاج مزيجا من اللغة جديدا وفنونا حديثة هى مرآة لتلك الشعوب التى اختلطت بالعرب من الفرس والروم فلما قفلوا[2] الى مواطنهم نقلوا كثيراً من علوم الشرق وفنونه وآدابه مما ظهر أثره فى أواخر القرن الثالث.



اقتصر أهل الأندلس فى هذا العصر والذى أتى بعده على دراسة علوم الشريعة من حديث وفقه وقراءات الى غير ذلك مما هو طبيعى لمن كان فى مثل الوسط الذى هم فيه وكان الفقه يدرس عند الأندلسيين على طريقة الامام المجتهد الأوزاعى لأنها كانت سائدة

---

(1) عضدت - زادت قوة ومن المجاز قوله تعالى «سنشد عضدك بأخيك» ويقول الرجل لصاحبيه كفانى بكما عضادتين أى معينين.

(2) جاء في أساس البلاغة اقفل الجند من الغزو الى أوطانهم قفلا وقفولا. وأقفلت الباب وقفلته أيضا.

فى بلاد الشام عند ما هاجرت القبائل ورحلت الجنود فى العهد الأول.

ولما رحل الى الحج جماعة كزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون وفرعوس بن العباس، وعيسى بن دينار، وسعيد بن أبى هند وغيرهم لقوا فى الحجاز مالكا فلقوا البحر العباب الذى لا ساحل له. فلما رجعوا نشروا آراءه وعلمه ويقول الاستاذ لوبث أرتث Lopez Ortiz فى كتابه عن انتشار مذهب مالك فى اسبانيا «منذ العهد الأول لدخول المسلمين اسبانيا انتشرت بينهم آراء الامام الأوزاعى، وكانت تعرف بآراء أهل الشام، وأهل المدينة، ومن المؤرخين من ينسب دخول مذهب مالك الى يحيى بن يحيى الليثى أو الى الامام شبطون والحقيقة أنهما أدخلا الفقه كعلم يدرس على طريقة مالك أو الأوزاعى كما أن الغازى بن قيس انما أدخل الموطأ. ولم تكن آراء مالك كونت مذهبا ولا عرفت بذلك بعد».

*
* *

ان أعظم أثر أو حادث يهم الحياة الفكرية فى عصر هشام خلف عبد الرحمن الذى قال عنه ابن حزم «انه ثالث ثلاثة من عدول بنى أمية» هو استحواذ فقهاء المالكية على مناصب الدولة وانتشار نفوذهم لأن الأمير كان لا يسند الوظائف الدينية والقضائية الا لمن تبحر فى الفقه المالكى فقوى مركزهم.

وقد حاول ابنه الحكم القضاء على نفوذ الفقهاء فثارت ضده ثورة الربض الشهيرة برياسة يحيى بن يحيى الليثى تلميذ مالك يعاونه الفقيه طالوت وعيسى بن دينار وغيرهما واتهموا الحكم بالمجاهرة بالمعاصى والخروج عن جادة الدين فقضى الحكم على هذه الثورة بقسوة وشدة هاجر من الأندلس بسببها خلق كثير منهم ثلثمائة أسرة نزحت الى فاس كما ذهب الى الاسكندرية خمسة عشر ألفا فصار أمرها اليهم حتى أخرجهم منها عبدالله بن طاهر بن الحسين أحد قواد المأمون سنة 826 فذهبوا الى كريت وامتلكوها حتى احتلها الاغريق منهم سنة 961.

ويقول العلامة الهولندى دوزى Dozy ان الحكم أسخط الفقهاء بعدم منحهم النفوذ الكلى فى المملكة وبصدهم عن احتكار التعليم. واليهم يعزو العلامة دوزى اختفاء تعليم الحساب والتنجيم والفلسفة حتى انه لم يتعاطاها الا أفراد قلائل خفية اذ يقول: «فلا نجد أكثر من أربعة أسماء أو خمسة قبل عصر الحكم المستنصر المشهور بحريته وتسامحه».

وكان الحكم بن هشام أديبا يشارك أهل العلم روى لسان الدين بن الخطيب قال: «كان الحكم على فظاظته شاعرا مطبوعا» وهو القائل من قصيدة طويلة رواها نفح الطيب ج 1 ص 162.

فهذى بلادى اننى قد تركتها * مهادا ولم أترك عليها منازعا

*

* *

أما خلفه عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط) 206. 238هـ) (822 ـ 852) م فقد عرف بتشجيع الأدباء والميل الى العلماء قال المقرى عنه فى نفح الطيب «كان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون وكثرت الأموال عنده»

ولكنه كان ضعيفا فى شخصيته أستولت عليه جاريته طروب[1] فكان يأتمر بأمرها مدة «وكانت تبرم مع نصر الخصى فلا يرد شيئا مما تبرمه» وأحب جارية غيرها اسمها «قلم» وهى أديبة حافظة للأخبار راوية للشعر حسنة الخط عالمة بضروب الأدب.

ويذكرون انه كان مولعا بالسماع مؤثراً له على جميع لذاته، ولعل ذلك ما جعله يبالغ فى اكرام الموسيقى زرياب تلميذ اسحق الموصلى حين وفد على بلاطه من بغداد. ذكر صاحب الأغانى أن زريابا كان يركب فى مائتى غلام مملوك له، واكتسب بلاط عبد

---

(1) وقد قال فيها :

إذا ما بدت لى شمس النهـا * ر طالعـة ذكرتـنى طروبا

أنا ابن الميامين من غالب * أشب حروبا واطفى حروبا

الرحمن بوصوله حلة بلاط بغداد من الأبهة والفخامة وكما أثر فى الحياة الاجتماعية بلباسه وذوقه، أدخل الى الأندلس كثيراً من آداب البغداديين فى أزيائهم وعاداتهم وأطعمتهم وصار ذلك الى آخر ملك المسلمين بالأندلس منسوبا اليه معلوماً به.

قال عنه العلامة الانجليزى جوزيف مكابى Joseph Macaby [1]
«فأين يوجد فى عالمنا شخص يدانى ذلك الموسيقى - كان يعرف عشرة آلاف صوت من نغمات الغناء وأنا لا أدرى هل ذلك فوق مقدرة الفنيين فى عصرنا أم لا ؟! ولكننى أعلم أن ما عندهم ! هو جزء مما كان عند زرياب وكان عالما بالعلوم العالية فى ذلك الزمان كالجغرافية، والفلسفة، مثل ما كان عالما بالموسيقى واخترع عطورا جديدة وأدهانا للتجميل وجلب الأغذية والعقاقير ووضع طرازا صحيا للملابس وأصلح النظام السياسى وأوجد فى الناس تهذيبا فى الوجهة الاجتماعية.

ويقول الأستاذ المستشرق الاسبانى غونثالث بلنسية Gonzalez Palencia ان سلطان العربية تمكن من المسيحيين فى هذا العصر، وأدمجوا فى ثقافتها تدل على ذلك شكوى الفارو القرطبى Alvaro المعروفة وفيها يقول : «ان أهل دينى لا تلذ لهم إلا قراءة الشعر والقصص

---

(1) مجلة المغرب الجديد

العربى، يدرسون كتب التوحيد والفلسفة الاسلامية لا للرد عليها بل لتعلم الأسلوب العربى الفصيح أين من يطلع على كتبنا اللاتينية غير رجال الدين ؟! ومن يدرس الأناجيل وما جاء عن المرسلين ؟ واحسرتاه !! ان النابغين من الشباب المسيحى لا يعرفون الا لغة العرب وآدابهم يدرسون كتبها باهتمام، وينفقون فى جمعها الأموال ويصرحون باعجابهم بالأدب العربى، واذا ما خاطبتهم بما فى الكتب المسيحية أجابوك باشمئزاز «ليس فيها ما يستحق الذكر والعناية ! باللألم !! ان المسيحيين نسوا كل شىء حتى لغتهم فلا تجد فى الألف واحداً يتقن كتابة رسالة باللغة اللاتينية بينما عدد من يتكلم بالعربية الفصحى لا يحصى بل كثير جداً عدد من يؤلفون القصائد الفنية الفائقة الممتازة عن قصائد العرب...»

ومهما يكن فى هذه الشكوى من المبالغة فانها تبين لنا مقام الثقافة الاسلامية بين أهل الجزيرة من المسيحيين - ولكن - من دواعى الأسف - أن الدهر لم يبق لنا أثراً من ذلك الأدب المسيحى اللهم إلا بعض الأدعية والصلوات وتعريب كتاب فى الفقه المسيحى مع بعض الحواشى أما فى الشعر فلا نعلم غير هذه الأبيات التى قدم بها بعض الشمامسة كتابا للأسقف عبد الملك نوردها هنا لا لقيمتها الأدبية أو الفنية ولكن لقيمتها التاريخية.

وهى :

كتاب لعبد الملك الاسقف الندب * جواد نبيل الرفض فى زمن الجدب

همام ذكى الحدس واحد عصره * عليم كريم ذى حلوم وذى لب

تجدد فضل الله فينا بفضله * وهم به كل الانام هدى الرب

فلا زال فى عز من الله شامل * هدى انهل مزن فى قرى الارض بالسكب

☆

☆ ☆

وخلفه ابنه المنذر الذى لم يدم فى الحكم الا سنة .

وجاء بعده الأمير محمد(238 ـ 273هـ) (853 ـ 886م).

ولم يكن لعصرهما أثر بين فى الثقافة والفكر وانما اندلعت نيران الثورة والاضطراب واستمرت الى عهد الأمير عبد الله.

الامير عبد الله بن محمد (275 ـ 300)هـ (888 ـ 912)م فى عهده تحيف النكث أطراف البلاد واقتسمها الثوار وكلب عليها الاشرار، ولم يبق للامارة غير الاسم ينادى به فوق منابر قرطبة.

كانت هذه الفتن من نوع غير التى سببتها العصبية القبلية، اذ كان على رأسها فى الغالب بعض الاهالى من الاسبان الداخليين فى الاسلام، وكانوا يعرفون بالمولدين، وأشهرهم عمر بن حفصون.

وبعث ذلك بعض الأسر العربية على التحزب ومد يد المساعدة

للأمير ونشأت فروسية تمثلت فى سعيد بن جودى قائد الجنود التى حاربت عمر بن حفصون وقال عنه ابن الأبار: «انه كان شجاعا بطلا، وفارسا مجربا، قد تصرف مع فروسيته فى فنون العلم، فاغتدى أديبا وشاعرا محسنا تعد له عشر خصال تفرد بها فى زمانه لا يدفع عنها: الجود، والشجاعة، والفروسية، والجمال، والشعر، والخطابة، والشدة والطعن، والضرب، والرماية» ولعل هذا ما جعل المستشرق الهولندى دوزى ينعته «بأنموذج الفارس العربى».

وقد ولدت مع هذه الظاهرة فى الحياة العامة ظاهرة أخرى هى فى الأدب أعمق أثرا وهى فى الفن الموسيقى أبعد غاية ظاهرة ترمى الى الابتكار والخروج عما ألفه الأجداد من نظام ألزموا به أنفسهم فى وزن أشعارهم.

اذ توصل مقدم بن معافر ومدرسته الى استنباط الزجل والموشحات بلغة ليست عربية خالصة بل ممزوجة فى بعض الأحيان بألفاظ من العامية اللاتينية - والاعراب فيها من عيوبها - فى أوزان تشبه النغم الناطق ولسهولة تناولها وقرب طريقتها وسلاستها استظرفها الشعب ثم انتشرت فى الشرق والغرب.

وكما تحلل الشعراء من بحور الشعر وقوافيه تجرأ بعض الفقهاء على اختراق سياج الدراسة الفقهية السائدة على مذهب مالك والخروج

عن نظامها فجلس للفتيا وتعليم الجمهور على مذهب الامـام الشافعى الأمام الحجة المجتهد أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد صاحب التفسير الذى قال فيه أبو محمد على بن حزم «لم يؤلف فى الاسلام تفسير مثله».

ما كادت تنتهى المائـة الثالثـة، حتى بلغت العلوم الشرعية من فقه وحديث وتفسير فى الاأندلس مكانا ساميا مع أن أهل الاأندلس «ليس لهم مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرءون جميع العلوم فى المساجد بأجرة فهم يقرءون لأن يتعلموا لا ليأخذوا أجراً، فالعـالم منهم بارع لا يطلب ذلك العلم إلا بباعث فى نفسه يحمله على أن يترك الشغل الـذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يتعلم وكل العلوم لها عندهم حظ واعتنـاء إلا الفلسفة والتنجيم فان لهمـا حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهرون بهما خوف العامة»

ويجمل بك أن تعرف بعض علماء هذه المائة فمنهم عبد الملك ابن حبيب السلمى وقد جمع الى علم الفقه والحديث علم اللغة وتصرف فى فنون الآداب، ويحيى بن يحيى الليثى راوى الموطـأ عن الامام مالك قيل «يحيى بن يحيى الليثى عاقل الأندلس وعيسى بن دينار فقيهها وعبد الملك بن حبيب عالمها» ومن هؤلاء العلماء محمد بن عبد السلام الخشنى الذى أدخل الى الاأندلس علمـا كثيراً من الحديث واللغة والشعر ومنهم أبو عبد الله محمد بن موسى المعروف بالانشتين

صاحب طبقات الكتاب بالأندلس وتأليفه لم يصلنا ومنهم أبو عبد الله محمد بن لبابة وكان فقيها أديبا من حاشية الأمير عبد الله ومنهم عثمان بن ربيعة ويقال انه ألف فى طبقات الشعراء بالأندلس وغير هؤلاء كثير من العلماء.

ومن الشعراء البارزين يحيى الغزال، وتمام بن أمير بن علقمة وقد عاش كل واحد منهما ما يقرب من مائة سنة وعبد الله بن الشم وغيرهم.

✡

✡ ✡

اما المائة الرابعة فكانت من الوجهة الاقتصادية، والسياسية، والعمرانية أقوى وأظهر فى تاريخ الاسلام باسبانيا وقد تقاسم الحكم فيها أمراء لا يجود الدهر بكثير من مثلهم وكانوا أبرز الرجال فى تاريخ الأمة العربية ومن مفاخر الملة الاسلامية وهم عبد الرحمن الناصر (300 ـ 350)هـ (913 ـ 961) وابنه الحكم المستنصر بالله (350 ـ 366)هـ (961 ـ 976)م ثم الوزير محمد بن أبى عامر المنصور (368 ـ 392)هـ (978 ـ 1002)م.

بينما كانت دولة بنى أمية فى آخر رمق من حياتها يهددها المسيحيون فى الشمال والفاطميون فى الجنوب، والفوضى تعمل عملها

فى الداخل. بعث الله لها منقذا فى شخصيـة عبد الرحمن الناصر لدين الله (300 ـ 350)هـ (913 ـ 961)م.

فضرب على أيدى الثـائرين وحصر نفوذ الفاطميين فى بـلاد المغرب واعترض فى مدارج أنفاس المذهب الشيعى والدعوة بالخلافة للامام العادل ورد الولايات الشمالية الى حكومة قرطبة بصد هجمات المسيحيين ومركز السلطـة فى يده وكون من الصقالبـة جيشا تزايد عدده حتى أصبح قوة لا يستهان بها وكان لها شأنهـا على عهد ملوك الطوائف.

نهض عبد الرحمن الناصر بالتجارة والزراعة والصناعة وزين قرطبة وبنى الزهراء مما دل على ما وصلت اليه الدولة فى عهده أليس هو القائل:

إن البنـاء اذا تعاظم قدره * أضحى يـدل على عظيم الشان

فعمت الطمأنينة والرفاهية البلاد وأرسلت دولة بيزنطة وأمراء الألمان والطليان وفرنسا سفراءهم الى بلاط عبد الرحمن الناصر «صاحب[1] أعظم جيش فى العالم فى وقته».

وبطبيعة الحال كان من نتيجة الرخاء المادى والاستقرار السياسى التقدم فى الأدب والعلوم والفنون وأصبحت جامعة قرطبـة تضاهى أعظم جامعة فى الشرق.

(1) العلامة دوزى

ومع هذا التقدم فان الأندلسيين داوموا الاتجاه نحو الشرق يستوحونه فى كل لون من ألوان المعرفة. وتأليف شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه كتابه العقد الفريد مقتصرا فيه على المشارقة وآدابهم وفنونهم والرواية عن رجالهم يدل على أن أساس ثقافة القوم ما زالت شرقية فانهم كانوا لا يرون فى آدابهم ما يكفى لارواء غلتهم وتهذيب نفوسهم (1) بل ذكر المستشرق الألمانى شاك أن الرحلة الى الشرق فى هذا العصر ازداد تدفقها وسيلها قال: «لا نجد بلادا ولا عصرا من عصور الثقافة كثرت فيه الرحلات الطويلة فى سبيل العلم وانتشرت مثل ما نجده فى اسبانيا خاصة منذ القرن العاشر».

وقال المستشرق الافرنسى غستاف دوغات Gustave Dugat فى المقدمة الفرنسية لطبعة كتاب «نفح الطيب» فى «ليدن» ما نصه:

لما استقر العرب فى اسبانيا أسس الأمويون جامعة فى قرطبة يدرس فيها التوحيد والفقه والفلسفة وعلوم اللغة على الطريقة الشرقية

---

(1) قال المستشرق هنرى بيريس Henri Pérés في كتابه الشعر الاندلسى في القرن الحادى عشر ص 48 يستدل على اعجاب الاندلسيين بالمشارقة «بانهم كانوا يسمون شعراءهم بأسماء أعلام الشرق فمحمد بن سعيد يعرف بالاصمعى وحمدة بنت زياد بالخنساء وابن زيدون بالبحترى...» ثم يقول كانت بغداد فى نظر الاندلسيين أشرف بلاد يعترف لها بعبقرية الرجال ومواهبهم فهى جنة أرضية ووطن كبار الشعراء كبشار بن برد وأبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز والعباس بن الاحنف والمتنبى والشريف ومهيار والمعرى»

وكانت هذة المدرسة تكفى حاجات عرب اسبانيا الفكرية ولكنهم نظرا لفقد بلادهم للتقاليد الأدبية كانوا يقتحمون مشاق السفر، بل يعرضون انفسهم أحيانا للخطر فى سبيل الرحلة الى مدارس الشرق ليستمعوا لمن فيها من الأساتذة الذين ربما فاقوا أساتذة المغرب».

وكان علماء الشرق أيضا يقصدون الأندلس ويلبون دعوة ملوكها لنشر علومهم والافادة بمعارفهم ومن أعيانهم فى هذا العصر أبو على القالى امام اللغة والأدب وصاحب كتاب الأمالى وقد أكرم الناصر مثواه وحسنت منزلته عنده.

كان من شأن الحرية الاجتماعية فى عهد عبد الرحمن أن تشجع الناس على دراسة سائر العلوم من طبية ورياضية وفلسفية. على أن هذا العلم الأخير رغم تسامح الخليفة عبد الرحمن لم يسلم من سطوة العامة وبعض الفقهاء الذين توصلوا الى حرق مؤلفات ابن مسرة وكان مذهبه حلوليا متأثرا بالفلسفة الأفلاطونية المستمدة من مدرسة الاسكندرية.

ويقول المستشرق الاستاذ بلينسيا: «انه كان من نتيجة اتخاذ عبد الرحمن لليهودى «حسداى بن شبروط» مستشارا له أن ابتدأت الدراسات التلمودية والآداب العبرية فى اسبانيا الاسلامية.

✡

✡ ✡

واشتدت الحركة العلمية، وقوى ساعدها على عهد خلف عبد الرحمن الحكم المستنصر بالله (350 - 366)هـ (961 - 976)م وقد قيل عنه انه: «ربما كان أعلم أمير جاء فى الاسلام». وكان عالما أديبا مال للفلسفة، وعرف بتسامحه.

وهو أول من أنشأ المدارس الرسمية فى اسبانيا الاسلامية بعد ما كان التعليم حراً لا يخضع للحكومة، لا فى برامجه، ولا فى نفقاته، ولا فى امتحاناته، ومع ذلك كان التعليم منتشراً حتى كادت الأمية أن تنقطع قال العلامة المستشرق دوزى «كان كل فرد فى اسبانيا يعرف القراءة والكتابة وذلك ما لم يشاهد فى وقته فى بلد آخر عدا اسبانيا الاسلامية» وقال المستشرق الاسبانى خوليان ريبيرا Julian Ribera فى محاضرة له عن تاريخ التعليم فى الأندلس: «يمكن وصف التعليم على عهد الحكم بوصفين عصريين: أحدهما الالزام، والآخر المجانية [1]»

وحبا فى تقوية الحركة الفكرية وزيادة فى نشر العلم جلب الحكم العلماء من الشرق لالقاء المحاضرات والوعظ فى مسجد قرطبة والتدريس به وشملهم برعايته وأجرى عليهم الأرزاق بل ان عطاياه وصلت الى

---

(1) الالزام فى هذه المدارس لم يكن حكوميا وانما فرضته البيئة الاجتماعية اما قوله المجانية فانه يشير الى ما أوقفه الحكم من ماله الخاص لينفق على تعليم أبناء الفقراء.

فقهاء الأمصار النائية منهم : «أبو اسحاق محمد بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمد بن يوسف الكندى وغيرهما حسب ما رواه ابن الأبار فى كتابه «الحلة السيراء.»

وقد أورث الحكم أمته أكبر مكتبة عرفتها القرون الوسطى ذكرت كتب الادب أنه هوى جمع الكتب النفيسة وأغرم بذلك فأرسل الى القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية وكلاء ينسخون له الكتب القديمة والحديثة مما غلا ثمنها واشتغل فى قصره النساخ والمذّهب والمجلد وأصبحت فهرسة خزائنه 44 فهرسة فى كل فهرسة 20 ورقة كما ذكر بعض المؤرخين و40 ورقة حسب رواية ابن حزم ليس فيها الا أسماء الكتب والدواوين دون وصف وقدروا أن عدد الكتب كان أكثر من 400.000 كتاب وأن الحكم قرأها وعلق على أكثرها فى أول الكتاب وآخره بكتابة اسم المؤلف وكنيته ولقبه وأسرته، وقبيلته وسنة ميلاده وسنة وفاته وما يروى عنه من الغرائب والنوادر «وصار كل ما كتبه الحكم حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ينقلونه من خطه ويحاضرون به» حسب ما يقوله ابن الأبار فى الحلة السيراء.»

وكانت تصله الكتب التى تؤلف بالشرق قبل أن تعرف هناك من ذلك أنه لما علم أنّ أبا الفرج الأصبهانى يؤلف كتابه الأغانى بعث

له بألف دينار وطلب منه أن يبعث له بنسخة منه عند تمام التأليف فأجابه أبو الفرج الى طلبه وأرسل له نسخة من كتابه النفيس مصحوبا بقصيدة فى مدح بنى أمية والخليفة ورسالة فى نسب بنى أمية فبعث له هدية أخرى كما فعل ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم.

خرج الفقهاء فى دولة عبد الرحمن والحكم من طور التبليغ والتعليم الى طور التأليف والتبويب والشرح والتعليق فى العلوم الشرعية فشرحوا أسانيد البخارى ومسلم ونشروا الموطأ وعنوا كثيراً بعلم القراءات فمنهم منذر بن سعيد، والقاسم بن أصباغ بن يوسف، والزاهد محمد بن أبى زمنين وأبو بكر بن معاوية وأبو العباس بن ذكوان وأبو المطرف عبد الرحمن بن عيسى وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى وكان واحد عصره فى علم النحو وحفظ اللغة. والمشاور أبو ابرهيم اسحق من أكابر علماء المالكية.

وظهر من الأدباء والمؤرخين شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه والشاعر المتقن أبو القاسم محمد بن هانىء وابن شهيد وعبد الملك بن جهور وأبو بكر محمد بن القوطية والمؤرخ العظيم أحمد بن محمد الرازى المعروف بالتاريخى.

ومن العلماء الرياضيين أحمد بن الناصر ومسلم بن القاسم

وأبو زيد الأسقف القرطبى وله كتاب فى التنجيم وهو الذى ألف للحكم كتاب تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان ونبغ فى علم الطب سليمان ابن أحمد بن جلجل الطبيب النباتى والطبيب يحيى بن اسحاق وأبو القاسم بن زهر.

أما الفلسفة فقد انتشرت فى الخاصة، ولكن لم يصلنا من انتاج هذا العصر شىء مهم، ولعل كتب الفلسفة ضاعت فى الحملات العنيفة التى جردها الفقهاء والعامة على الفلاسفة قال ابن سعيد: «والفلسفة علم ممقوت بالأندلس لا يستطاع اظهاره ولذلك تخفى تصانيفه.»

ويقول ابن حزم فى رسالته المشهورة «وأما الفلسفة[1] فانى رأيت منها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة وأما رسائل أستاذنا أبى عبد الله محمد بن الحسن المذحجى فى ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة».

ويغلب على الظن أنهم لم يعرفوا الا المنطق وشيئا من الفلسفة الأفلاطونية ولم يتوسعوا فى معرفة الفلسفة الارستطاليسية والشرح والتعمق فى فروعها إلا على عهد الموحدين.

وقد شاركت النساء الرجال فى الحياة الفكرية فدل ذلك على درجة

(1) نفح الطيب الجزء الثانى طبعة القاهرة ص 774

انتشار المعارف ورقى المجتمع - ومن اديبات ذلك العصر حسانة التميمية وكانت كاتبة للخليفة الناصر ولبنى وكانت كاتبة لابنه الحكم قيل انها كانت نحوية شاعرة بصيرة بالحساب مشاركة فى العلم ومن الأديبات عائشة بنت أحمد بن نادم القرطبى قالوا لم يكن فى زمانها من حرائر الأندلس من يعد لها فهما ولا علما ولا أدبا ولا شعرا ولا فصاحة وغيرهن كثيرات[1].

توفى الحكم المستنصر وفى الأندلس علماء يفتخر بهم كما قال لسان الدين بن الخطيب - فى كتاب أعمال الأعلام فى من تولى الخلافة قبل الاحتلام - قال: «وفى الأندلس من أعلام مشيخة العلم والدين والشهرة والصلابة فى الحق أمة لم يشتمل العراق عليها أيام احتفاله ووفور رجاله» ولو أردنا ذكر أسماء هؤلاء العلماء لضاق بنا المقام وخرجنا عن نطاق الاختصار الذى ألزمنا به أنفسنا فى هذه المقدمة.

✡

✡ ✡

---

(1) ذكر نفح الطيب في الجزء الثانى من الأديبات «أم السعد بنت عصام وأم العلاء بنت يوسف وأمة العزيز الشريفة الحسنية وأم الكرام بنت المعتصم والعبادية جارية المعتضد وأسماء العامرية وهى من أديبات عصر الموحدين ومن أديبات عصر الموحدين أيضا الشلبية».

عصر الحاجب المنصور

ترك الحكم الخلافة من بعده لابنه هشام وهو فى الحادية عشرة من عمره فصار الأمر للوزير المصحفى وغيره من الوزراء ولكن النصارى فى الشمال خرجوا على أهل الثغور لما سمعوا بموت الحكم واحتلوا البلاد وكادوا يصلون الى قرطبة عاصمة الخلافة ولم يجد المسلمون من يقود جيوشهم لمقاومة العدو الى أن ظهرت شخصية من أبرع الشخصيات واحزمها نعنى بها «محمد بن عبد الله بن أبى عامر» الذى سبقت له خدمة البلاط الأموى أيام الحكم فعرف كيف يستولى على القلوب ويستحوذ على النفوس .

انقض أبو عامر المنصور بجيشه العظيم على نواحى الشمال فرد جيوش النصرانية ورجع الى قرطبة يحمل اكليل الظفر والنصر وكان يطمح الى رياسة الدولة والانفراد بالحكم فما زال يعمل الحيل ويدس لمن يعترض سبيله حتى قضى على منافسيه وتهيأ له الجو وتم له ما أراد فأسقط الوزير المصحفى وأصحابه وأجلاهم وشردهم وكون جيشاً من المغاربة يأتمرون بأمره وأضاف اليه كثيراً من فرسان الصقالبة ومسيحى الشمال الداخلين فى الجندية للارتزاق «فأعطى البلاد قوة لم تعهدها من قبل حتى فى أيام الناصر»

أما الخليفة هشام فبقى سجينا فى قصره بالزاهرة الذى اختطه له المنصور ونقل اليه دواوين الحكومة.

ان الشعب والفقهاء لم يعترفوا للمنصور وتمركز السلطة فى يده ولم تكن قلوبهم راضية عن استبداده بالأمر دون الملك الطفل حفيد الناصر وسليل بنى أمية الذين لهم فى القلب مكانة مكينة خاصة بعد أن تنعموا بالهدوء والاستقرار أيام الناصر والمستنصر. فحاول الفقهاء تدبير مؤامرة بمعاونة أنصار الوزير المصحفى ولكنها فشلت وقتل المنصور بسببها كثيرا من العلماء والأدباء ومنهم قاضى القضاة عبد الملك بن منذر بن سعيد.

ورغم ما اكتسبه من النفوذ بحسن تدبيره وانتصاراته فقد قويت الاشاعة ضده واتهم باشتغاله بالفلسفة وتهاونه بأمر الدين فأراد أن يعطى للعامة والفقهاء برهانا على بطلان تلك الدعوى فأمر باحراق كتب الفلسفة والفلك والتنجيم والعلوم الأخرى التى كان بعض الفقهاء يزعم تحريمها.

كان لتقهقر المنصور أمام ضغط الفقهاء نتيجة محزنة وتأخر فى الثقافة الأندلسية، ويقول المستشرق العلامة دوزى Dozy ما معناه «رغم الظروف السياسية التى اجبرته على اقصاء الفلسفة والفلاسفة فقد

كان من المحبب اليه أن يحمى العلماء والفلاسفة كلما أمكنه ذلك دون أن يمس عواطف الفقهاء.

ويقول ابن الأبار فى الحلة السيراء : «وعلى ما كان عليه المنصور من الهيبة والرهبة فقد كان له حلم واحتمال مع محبة للعلم وايثار للأدب واكرام لمن ينسب اليهما ويروون له شعراً فى الفخر يدل على همة ومضاء عزيمة قال فيه :

رميت بنفسى هول كل عظيمة

وخاطرت والحر الكريم مخاطر

سدت بنفسى أهل كل سيادة

وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر

وما شدت بنيانا ولكن زيادة

على ما بنى عبد المليك وعامر

ومن شعره يمنى نفسه ملك مصر والحجاز والشام كما جاء فى نفح الطيب ج 1 ص 192 :

منع العين أن تذوق المناما   حبها أن ترى الصفا والمقاما

لى ديون بالشرق عند أناس   قد أحلوا بالمشعرين الحراما

ان قضوها نالوا الأمانى والا   جعلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام   يبلغ النيل خطوها والشاما

تزاحم بلاط المنصور بالأدباء والشعراء وكان يستصحب بعضهم فى جهاده ورتب لهم ديوانا خاصاً تجرى عليهم منه الأرزاق والأموال.

طلب المنصور صاعدا البغدادى للأدب والقاء المحاضرات العلمية بالأندلس «وكان يريد أن يتمم به وفادة أبى على القالى ويكمل آثاره التى قام بها على عهد بنى أمية. فما وجد صاعد حينما وصل الى الأندلس من يرتضيه وأعرض عنه أهل العلم وقدحوا فى علمه وعقله ودينه».

ولا نجد تعليلا لهذه المقابلة التى قابل بها أهل الأندلس ذلك العالم البغدادى مع كونه، عالما باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة فكه المجالسة «الا فى المنافسة التى أخذت تبدو فى الأندلس لأهل المشرق وهى رد فعل لما كان يقع من الاقبال على كل قادم من الشرق واهمال رجال الأندلس رغم ما وصلوا اليه من العلم والعرفان بحيث أصبحوا لا يقلون فى شىء عن رجال العراق والشام ومصر وتجد صدى هذه الظاهرة فى شعر ابن حزم وقصيدة ابن دراج للعامرى وفى خطبة منذر بن سعيد أمام الناصر

قال ابن حزم[1] :

أنـا الشمس فى جو العلـوم منيرة
ولكن عيبى أن مطلعى الغرب

ولوأ ننى من جانب الشرق طالـع
لجد على ما ضاع من ذكرى النهب

ولى نحو آفـاق العراق صبابـة
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصـب[2]

فـان ينزل الرحمن رحلى بينهم
فحينئذ يبدو التأسف والكرب

فـكم قائل أغفلته وهو حـاضر
وأطلب ما عنه تجيء به الـكـتب

هنالك تـدرى أن للعبد قصة
وأن كساد العلم آفتـه الغرب

فياعجبا من غاب عنهم تشوقوا
له ودنو المرء من دارهم ذنب

---

(1) نفح الطيب ج 1 ص 366

(2) يقال هو صب بها كلف وهى صبة به

وان مكانا ضاق عنى لضيق

على أنه فسيح مهامهه[1] سهب[2]

وان رجالا ضيعونى لضيع

وإنّ زمانا لم أنل خصبه جدب

هذا وقد ذكر المقرى فى (نفح الطيب صفحة 176 من الجزء الأول) خطبة منذر بن سعيد البلوطى ـ نقلا عن ابن سعيد فى المغرب ـ أمام الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة وقد جاء فى آخر الخطبة ما يلى:

هذا المقام الذى ما عابه فند

لكن قائله أزرى به البلد

لو كنت فيهم غريبا كنت مطرّفا

لكننى منهم فاغتالنى النكد

قال المقرى: «كأنه عرض بأبى على القالى البغدادى وتقديمهم اياه فى هذا المقام» لأن أبا على ـ رحمه الله ـ حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ثم انقطع وتهيب فما وصل ولا قطع ووقف ساكتا مفكرا فقام منذر بن سعيد وأكمل خطبته.

---

(1) يقال قطعوا مهمها بعيدا ومهامه فيحا

(2) قطعوا سهبا من الأرض وسهوبا مستوية بعيدة

قال هنرى بيريس Henri Pérès فى كتابه (الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر) لقد صور ابن حزم نفسه فى الأبيات السابقة. أدق تصوير، ويمكننا أن نجزم بأن هذا القلق وتلك الأفكار لم تساوره وحده، بل أخذ الأندلسيون قبيل القرن الحادى عشر على تقويض الأسباب المادية المعترضة فى سبيل نشر شعرهم ونثرهم وتقديرهما - وهى فقدان أى ديوان أو أى كتاب أو أى مجموعة لكتابهم وشعرائهم[1].

ونشأت جماعة من الكتاب والشعراء أشربت حب الحياة الأندلسية بل وصلت هذه الحياة الى أعماق نفوسهم فاندفعوا اندفاعا تاما يناضلون عنها أشد نضال ويجاهدون فى سبيلها أشد جهاد فى لون من الحماسة الحزبية لاسبانيا الاسلامية ولشعرائها وكتابها وعلمائها ويصورون

---

(1) ولقد ذكر ابن حزم فى رسالته تحليلا وجيهـا لحال العلمـاء فى وطنه وتحاسدهم وتباغضهم قال : «وأما جهتنا فالحكم فى ذلك ما جرى به المثل السائر (أزهد الناس فى عالم أهله) وقرأت فى الانجيل أن عيسى عليه السلام قال (لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده)...ولا سيما أندلسنا فانها خصت بحسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم واستقلالهم كثير ما يأتى به واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته واكثر ذلك مدة حياته باضعاف ما فى سائر البلاد إن أجاد قالوا سارق مغير ومنتحل مدع وان توسط قالوا غث بارد وضعيف ساقط وان باكر الحيازة لقصب السبق قالوا متى كان هذا ومتى تعلم وفى أى زمان قرأ ولأمه الهبل» نفح الطيب ج 2 ص 770

أغراضهم وآراءهم ومبادئهم أدق تصوير فى نوع من الشدة رغبة فى الانتصار على علماء الشرق

فحاول ابن فرج الجيانى (366 - 976) - وان كانت محاولته أولية - سد هذه الثلمة بتأليفه كتاب «الحدائق» على طريقة ابن داود الأصفهانى فى كتابه «الزهرة» ومع أن الكتاب لم يصلنا فان القطع المنتخبة منه فى كتب التراجم والأدب قطع أندلسية قصد منها ابن فرج دون ريب هداية الأندلسيين لأدبهم.

ثم ظهر شاب قرطبى متعصب للأندلس أشد التعصب حريص كل الحرص على أن يظهر ما فى بلاده من المثل العليا ذلك هو أبو الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى وزير القاضى أبى القاسم بن عباد الأشبيلى - فألف كتاب «البديع فى وصف الربيع»

ان مقدمة ذلك الكتاب بلاغ للوطنية الأندلسية قال فيها:

«وأما أشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها والنظر اليها حتى ما تميل نحوها النفوس ولا يروقها منها العلق النفيس مع انى استغنى عنها ولا أحوج اليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع والنظم المخترع وأكثر ذلك لأهل عصرى إذ لم تغب نوادرهم عن ذكرى..

ولأهل المشرق فى تأليف أشعار شعرائهم وتدوين أخبار علمائهم

الفضل علينا والسبق لنا حتى لقد يجمعون خشينها مع حسنها ويضيفون لحنها الى لحنها لا قلة ميز بها بل تحرجا عن تركها ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة لأوردت على الحقيقة امثال ما أوردت وأضعاف ما اجتلبت لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم وتثقيفهم لأخبارهم مذ تكلمت العرب بكلامها وشغلت بنثرها ونظمها الى هلم جرا لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات فى هذه الموصوفات ما وجدته لأهل بلدى على كثرة ما سقط منها عن يدى بالغفلة التى ذكرتها عنها وقلة التهمم بها وعلى قرب عهد الأندلس بمنتحلى الاسلام فكيف بمنتخلى الكلام ولو تأخروا عن ادراك المشرقيين فى كل نحو وغرض وتقهقروا عن لحاقهم فى كل جوهر وعرض لكانوا أحقاء بالتأخر وأحرياء بالتقهقر فكيف يرى فضلهم وقد سبقوا فى أحسن المعانى مجتلى وأطيبها مجتنى... فلهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه :

ان روح أبى الوليد فى كتابه «البديع فى وصف الربيع» توشك أن تكون روح ابن فرج فى كتابه «الحدائق» مع أنه لم يطلع عليه.

ثم جاء بعد ذلك ابن بسام الشنتريني المتوفى (542هـ - 1147م) والفتح بن خاقان فأكملا عمل صاحبيهما فألف الأول «الذخيرة

فى محاسن أهل الجزيرة» كما ألف الثانى «قلائد العقيان»

ويقول العلامة المستشرق هنرى بيريس Henri Pérés «ان ابن بسام قد جهل تماما كتاب «البديع فى وصف الربيع»[1] كما أن أبا الوليد نفسه كان على غير علم بكتاب «الحدائق» ومع ذلك فقد اقتفى ابن بسام أثر أبى الوليد[2] فى صورة جلية واضحة ولم يترك فرصة تمر دون أن يذكر تفوق الأندلسيين على المشارقة ويشيد بنبوغهم ويتغنى بآدابهم وفضلهم»

ان أكبر شعراء القرن الحادى عشر قد جمعوا أشعارهم خوفا عليها من الضياع وذكرى للأندلسيين. فالمعتضد والمعتمد وابن عمار وابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس وغيرهم من الشعراء أرادوا أن يسموا بشعرهم الى المقام الذى يستحقه فى عالم الأدب فدونوه ولم يكن ذلك الا رد فعل ضد علماء الشرق.

---

(1) هكذا فى كتاب هنرى بيريس Heuri Pérés صفحة 48 مع أن هذا المستشرق نفسه ذكر ترجمة أبى الوليد ومقتطفات من كتاب البديع مع وصف مختصر للكتاب - نقلا عن الذخيرة لابن بسام - عند نشره كتاب «البديع فى وصف الربيع» (المطبعة الاقتصادية بالرباط سنة 1940)

(2) قال المقرى فى نفح الطيب الجزء الثانى ص 777 «كتاب الذخيرة لابن بسام فى جزيرة الأندلس ليس هذا مكان الأطناب فى تفضيلها وهى كالذيل على حدائق ابن فرج.

عصر الطوائف

ان الآداب والعلوم والفنون قطعت شوطا بعيد المدى فى تلك الفترة التى تعتبر أزهى عصور اسبانيا الاسلامية فى أوروبا وكون الفن الاسلامى العربى حلقة من أروع حلقات الفنون فى القرون الوسطى.

وفى تلك الأثناء زالت يد المنصور الحديدية فسقطت حكومته العسكرية الاستبدادية وقامت حرب أهلية فى اسبانيا الاسلامية تقلص بسببها ظل الخلافة الاسلامية عن الولايات التى اصبحت تعيش تحت سيادة الاجناد مع أن الشعب الاسلامى لم يكن محبا لذلك قال دوزى Dozy : «لم يكن تفكك السلطة أمرا مرغوبا فيه عند أهل الولايات عامة فقد ذهب بهم التفكير الى أبعد مداه جزعا من المستقبل وأسفا على الماضى ولم يستفد من هذا الانحلال فى البلاد الا ملوك الافرنج وحدهم»

وبذا تفرقت الامبراطورية العربية الاسلامية التى بناها عبد الرحمن الثالث وخرجت البلاد من هذه الفتن والحروب مقسمة الى ما يزيد عن عشرين «مملكة» مع أن بعض الدويلات سقط وسط العواصف ولم يقو عودها على تحمل الأعاصير والفتن ولم تقدر على

الدفاع عن نفسها فابتلعها جيرانها واصبحت من مكونات مملكة أخرى قبل أن تترك فى الأدب أثراً.

ذلك العصر المضطرب الثائر هو عصر ملوك الطوائف وقد دام مدة سبعين سنة على وجه التقريب أثناء المائة الخامسة من الهجرة.

ان أهم دول الطوائف كانت فى قرطبة وأشبيلية حيث بنو جهور وبنو عباد ثم فى طليطلة وسرقسطة حيث بنو ذى النون وبنو هود ثم فى بطليوس وغرناطة حيث بنو الأفطس وبنو زيرى...

وهكذا أصبحت البلاد كما قال نيكلسون «شبيهة بايطاليا فى القرن الخامس عشر وملوكها كأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم فى ايطاليا اسم Condottiere.

وقد وجدت الحركة العلمية والفلسفية والأدبية ظلها الوارف ونصيرها القوى - رغم تصدع صرح المملكة وتفكك اجزائها - فى ملوك الطوائف الذين كانوا أنفسهم أدباء وعلماء وكان بلاطهم «مقصد الوفود ومطلع الجود ومحط الرحال وقبلة الآمال ومنتدى الفقهاء وموسم الأدباء.

واذا صدق المثل القائل بان كل نقمة فى طيها نعمة فان فرار العلماء من قرطبة أثناء الفتن كان من أسباب تعميم المعرفة ونشرها فى أطراف البلاد اذ أنهم تشتتوا فى المدن والقرى وهم يحملون ما

فى صدورهم من علم غزير ومـا فى خزائنهم من المصنفات العزيزة النفيسة فلم يكتفوا باحياء ما وجدوه هناك من ألوان الآداب والعلوم بل أينما وجدوا تربة طيبة بذروا فيها بذورا أنبتت وأتت بثمرات طيبة ازدان بها هذا العصر وقد شبه بعضهم ما وقع لقرطبة بمـا يقع لبعض الأجسام الحية اذا انقسمت حاول كل منهـا أن يعيش عيشة مستقلـة وان يكون جسما حيا شبيها بالأول الذى تفرع منه.

ولم تتشتت المكاتب الخاصة فقط بل المكاتب العامة ذات الآلاف من المجلدات التى أعتنى بجمعها بنو أمية وخاصة الحكم الثانى، اذ توزعت على المدن كلها وكان لها أثرهـا القوى فى عصر كانت فيه وسائل نشر الكتب ضعيفة تتطلب صعوبة ومشقة، والكتاب كان وما يزال معين الدرس والبحث ومصدر التفكير والتمحيص.

كان من نتيجة الحرية الواسعة التى منحها ملوك الطوائف لرعاياهم ان أقبل الناس على علوم الرياضة والفلسفة بلا تحفظ ولا تكتم يقول القاضى أبو القاسم صاعد بن احمد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم بعد ما تكلم عما أصاب العلوم الرياضية والفلسفية من المحن على عهد المنصور وغيره قال: «الى ان جاء أيام الطوائف ووجد الناس عند نقل الكتب من قرطبة اعلاما من الكتب القديمة كانت أفلتت من أيدى الممتحنين، وأظهر أيضا كل من كان عنده من الرعية

شيئا منها فلم تزل الرغبة ترتفع من ذلك الحين فى طلب العلم القديم شيئا فشيئا، وقواعد الطوائف تتبصر قليلا الى وقتنا هذا، فالحال بحمد الله أفضل مما كانت بالأندلس فى اباحة تلك العلوم والاعراض عن تحجر طالبها».

وفى هذا العصر أدخلت رسائل اخوان الصفاء للأندلس أدخلها حسب رواية صاعد الأندلسى والمقرى أبو الحكم عمر الكرمانى العالم الرياضى الذى استوطن مدينة سرقسطة فى ظل بنى هود أنصار الفلسفة والعلم وبعضهم نسب دخول الرسائل المذكورة الى شيخ الكرمانى وهو «أبو القاسم مسْلَمة» المعروف «بالمجريطى» من أكبر علماء الأندلس فى الهندسة والعدد.

ونشر الأستاذ المستشرق «غرسية ڭوميث Garcia Gomez» فى الجزء الثانى من المجلد الرابع من مجلة «الأندلس» بعض التلميحات فى الشعر الأندلسى الى الرسائل المذكورة ربما دلت على أنها كانت معروفة بالأندلس قبل ادخال الكرمانى لها. من ذلك ما جاء فى ديوان أبى اسحاق البيرى التجيبى المتوفى سنة 459هـ.

اذا لم يكن فهمى الى الخير قائدى فلا كان فهمى ولا كان تمييزى

تطلبت «اخوان الصفا» فوجدتهم زيوفا كأعمالى ومن لى بإبريز

ومن قوله أيضاً :

ولقد رأيت من الزمان عجائبا

جربتهـا بمواردى ومصـادرى

فوجدت «اخوان الصفاء» بزعمهم

يلقـاك أمحضهم بعـرض سابرى

ولربما قد شذ منهم نـــادر

وأصولنا ان لا قيـاس بنادر

وأورد الأستاذ گومث أبياتا أخرى من القلائد منسوبة لأبى الحسن ابن زنباع منها :

فأدر كؤوس الأنس فى حـافاتها

واجعل سديد القول من مشروبها

فحديث «اخوان الصفاء» لذاذة

تجنى ويؤمن من جناية حوبها

وأركض الى اللذات فى ميدانها

واسبق لسد ثغورهـا ودروبهـا

ويشك الاستاذ غومث بان استعمال «اخوان الصفاء» قصد به فى الأبيات الأخيرة غير المعنى اللغوى بينمـا هو لا يرى مجالا للالتباس فى الأبيات السابقة وفى نظرنا أنه ليس فى كلام الشاعرين ما يـدل

حتما على أنهما يشيران الى الجماعة المشهورة وهذا لا يمنع ان تكون رسائل اخوان الصفاء عرفت بالأندلس قبل الكرمانى نظرا للاتصال العلمى المستمر الذى كان موجودا بين الشرق والغرب اذ ذاك وانما لم يتهيأ الجو لظهورها وانتشارها الا فى عصر الطوائف فى بلاط بنى هود بسرقسطة كما قدمنا.

ولم يقتصر الاختلاف على ادخال الرسائل فقط بل ذهب بعضهم الى ان المجريطى هو نفسه مؤلف رسائل «اخوان الصفاء» حسب ما نقله الشيخ على يوسف صاحب المؤيد عن الوزير القفطى وذهب فريق آخر الى ان المجريطى انما الف رسائل على مثالها وكتم اسمه فيها والظاهر ان الذى أوهم بعض القوم ان هذه رسائل المجريطى هو قوله فى كتابه الذى سماه رتبة الحكيم فى علم الكيمياء: «وقد قدمنا من التآليف فى العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية رسائل استوعبنا فيها استيعابا لم يتقدمنا فيها أحد من أهل عصرنا وقد شاعت هذه الرسائل فيهم وظهرت اليهم فتنافسوا فى النظر اليها وحضوا أهل زمانهم عليها ولا يعلم أحد من ألف ولا من أين ألف غير الحذاق منهم.

قال العلامة المرحوم أحمد زكى باشا معلقا على هذا: «فالظاهر أنهم لما اطلعوا عليه قالوا ان الرسائل التى يقصدها هى رسائل

«اخوان الصفاء» وهو وهم فانه يقول: «وقد استوعبنا فيها العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية استيعابا لم يتقدمنا فيه أحد من أهل زماننا وليست رسائل اخوان الصفاء كذلك».

«وتتميما للفائدة نورد ما بقى من تحقيقات العلامة المرحوم احمد زكى حول الموضوع قال: قال صاحب كشف الظنون حاجى خليفة: قد وجد فى الأندلس كتاب آخر اسمه رسائل اخوان الصفا ألفه الحكيم «أبو محمد مسلمة المجريطى».

واذا اعتبرنا هذا القول بميزان البحث والتحقيق وصلنا الى ملحوظة لطيفة وذلك أن هذا الحكيم توفى سنة 395 كما يتضح من كلام أبى حيان ومن ذلك يستنبط أن أصحاب الرسائل الشرقية المتداولة الآن كانوا معاصرين للمجريطى وأن وقت تآليف رسائلهم يقارب الوقت الذى ألف فيه رسائله على ذلك النمط لأن صاحب الكشف قال: ان رسائله غير رسائل «اخوان الصفاء» وأنها على نمطها ومن هنا يظهر فضل صاحب الكشف واضحا فانه لم يخلط بين الكتابين ولم يسند كتاب المشرق للمجريطى وقد اورد كلمتين من خطبته فلا بد أن يكون قد اطلع على الكتاب.

ولكن اذا كان هذا موجودا حقيقة فكيف لم ينبه عليه القاضى صاعد مع أنه ذكر الكرمانى وادخال رسائل اخوان الصفاء

من الغلط اذاً نسبة الرسائل الى مسلمة المجريطى أما شيوعها على يد الكرمانى فلا يمنع أن تكون قد عرفت من قبل كما قدمنا على يد بعض العلماء أو طلبة العلم الواردين من الشرق.

وأحسن وصف لهذا العصر الغريب عصر الطوائف الذى كانت عيوبه السياسية والاجتماعية هى نفسها باعثة لرقيه الفكرى العظيم يجده القارىء فى هذه الفقرة من رسالة أبى الوليد الشقندى فى فضل أهل الاندلس (نفح الطيب ج 2 ص 128 ط ليدن) قال: ولما ثار بعد انتثار هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا فى البلاد كان فى تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد اذ نفقت سوق العلوم، وتباروا فى المثوبة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم الا قول العالم الفلانى عند الملك الفلانى والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى وليس منهم الا من بذل وسعه فى المكارم ونبهت الأمداح من مآثره ما يطاول الدهر بناء وقد سمعت ما كان من فتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران وسمعت عن الملوك العربيةمن بنى عباد وبنى صمادح وبنى الأفطس وبنى ذى النون وبنى هود كل منهم قد خلد فيه من الأمداح ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرياض وتفتك فى أموالهم فتكة البراض حتى ان أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم فى

أمداحهم ان حلف ألّا يمدح أحدا منهم بقصيدة الا بمائة دينار وان المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سطوة وافراط هيبة كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرط فى قسمه ومن أعظم ما يحكى من المكارم التى لم نسمع لها اختا أن أبا غالب اللغوى ألف كتابا فبذل له مجاهد العامرى ملك دانية ألف دينار وكسى على أن يجعل الكتاب باسمه فلم يقبل ذلك أبو غالب وقال كتاب الفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى أجعل فى صدره اسم غيرى واصرف الفخر له لا أفعل ذلك فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن انفته وهمته واضعف له العطاء وقال هو فى حل من ان يذكرنى فيه لا نصده عن غرضه وان كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا فى ملأة الحضر فانى أخص منهم «بنى عباد» كما قال الله تعالى: (فيهما فاكهة ونخل ورمان). فان الأيام لم تزل بهم كأعياد وكان لهم من الحنو على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان فى حلب وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا فى بلاغتى النظم والنثر مشاركين فى فنون العلم. وآثارهم مذكورة وأخبارهم مشهورة وقد خلدوا من المكارم التامة ما هو متردد فى ألسن الخاصة والعامة».

ذلك هو عصر الطوائف الذى لم يتقدم له نظير فى تاريخ الأندلس الثقافى وقد كان خصب الانتاج فى كل فرع من فروع

المعرفة بل لا نجد أخصب منه فى الشعر اذ الشعراء المجيدون لا يحصى عددهم ونزل الشعر من نوادى الأدباء وقصور الأمراء الى دكاكين الصناع واكواخ الفلاحين فكان بين هؤلاء من يرتجل ويحسن القول نقل نيكولسون المستشرق الانكليزى عن القزوينى «ان أهل شلب كلهم كانوا يقرضون الشعر فلو مررت بفلاح وراء محراثه وسألته شعرا لأجابك مرتجلا على الفور فى أى موضوع» كما أن الجنس اللطيف أظهر فى هذا الميدان براعة وتفوقا ويكفى أن نذكر اسم ولّادة كمثال وكانت زعامة الأدب لدولة بنى عباد غير مدافع فقد اجتمع لهم ما لم يجتمع لغيرهم من الشعراء المبدعين المتفننين «وهم أصحاب المعانى الدقيقة والخيال الرقيق والألفاظ العذبة» أليس فيهم عبد الجبار بن حمديس الصقلى وأبو بكر بن زيدون وأبو بكر بن اللبانة راثى المعتمد فى حياته وبعد مماته، وعبد الجليل ابن وهبون والوزير البائس أبو بكر بن عمار ولا ننسى أميرهم المعتمد الذى خلد لنا عن أيام سجنه ومحنته تلك القصائد المنبعثة من نفس عزيزة لم تعرف ذل الخضوع ولم تستطع الاستسلام لنوائب الدهر أليس هو القائل:

قالوا: الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع

الى ان قال :

والـذ من طعم الخضو ع على فمى السم النقيع

ما سرت قط الى القتا ل وكان من أملى الرجوع

شيم الألى أنا منهـم والأصل تتبعه الفروع

☆

☆ ☆

ولو أردنا أن نبسط القـول عن بلاط ملوك الطوائف جميعهم لضاق بنا المقام ويكفى أن نقول ان المقـتدر والمؤتمن من بنى هود كانوا أنفسهم فلاسفة علماء وكـان المؤتمن من أبرع الناس فى فنون الرياضة وله فيها تآليف عدة وكـان من المتحمسين لنشر الفلسفة والحساب والتنجيم وعاش فى ظل بنى هود بسرقسطة فلاسفة منهم ابن جبرون وابن باجة، وفى رعـايتهم من عـام 431 ـ 536هـ. تربى الطرطوشى مؤلف سراج الملوك.

☆

☆ ☆

ان بلاط بنى ذى النـون[1] ازدحم بالعلماء الـذين منهم ابرهيم

---

(1) بنو ذى النون من الأسر المغربية التى استولت على طليطلة وما جاورها خدم جدهم في دولة المنصور بن أبى عامر وقاد احفاده الجيوش وتهيأت لهم الظروف للاستيلاء على طليطلة بدعوة من أهلها بعدخلع عبد المـلك بن متيوه وكان بنو ذى النون من أنصار العلم والأدب.

ابن يحيى النقاش المعروف بابن الزرقيال أبصر أهل زمانه بارصاد الكواكب والنجوم، ومنهم محمد بن بصال صاحب كتاب الفلاحة، ومن النحويين الوقاش وأحمد بن مغيث بن أحمد الصدفى المكنى بأبى جعفر صاحب كتاب المقنع.

✡

✡ ✡

وكانت الثقافة والأدب فى بطليوس تحتل مركزاً سامياً بفضل بنى الأفطس وتشجيعهم، وقد ألف المظفر بن الأفطس كتابا فى فنون الأدب فى نحو مائة مجلد وفيه تاريخ على السنين وفنون وآداب كثيرة.

ولحبه للعلم والشعر خاصة ورغبته فى علو شأنه كان يقول: «من لم يكن شعره مثل شعر المتنبى أو المعرى فليسكت».

وأصبحت بطليوس فى عهد خلفه دار أدب وشعر ونحو وعلم وكعبة يقصد اليها الفصحاء والبلغاء. قال عنه الفتح فى قلائده: «طافت الآمال بكعبته واعتمرت الى لسن وفصاحة ونظم يزرى بالدر النظيم ونثر يسرى فى رقة النسيم.

وفى بلاطهم[1] خدم ابن عبد البر القرطبى من الفقهاء والمحدثين

(1) المظفر بن الأفطس جده أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس أصله من قبائل مكناسة وهو من ملوك المغاربة الذين كان بلاطهم سوقا نافقة للادب.

وقد رثاهم ابن عبدون بقصيدته الشهيرة التى قال عنها ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام «وقد رثاهم الوزير أبو محمد بن عبدون بقصيدة تكبرها المسامع ويعتبر بها السامع».

وتمتاز هذه القصيدة بأنها تضمنت على سبيل العبرة والموعظة أهم حوادث التاريخ والنكبات التى اصابت الملوك وطوحت بتيجان الأباطرة كما أن فيها تسلية وسلوى بذكر المأساة التى أصيبت بها الانسانية منذ فجر التاريخ وقد نسج على منوالها بعض الشعراء فى العصر الحديث.



أما مفخرة هذا العصر فقد أنجبته أم العواصم قرطبة وهو أبو محمد ابن حزم الذى قال عنه صاعد الأندلسى «انه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم البيان والبلاغة والشعر والسير والأخبار والمنطق والفلسفة، أخبرنى ابنه أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو 400 مجلد».

وقال عنه الأستاذ أسين بلاسيوس : «ان ابن حزم بتآليفه كتاب الملل والنحل قد سبق علماء اوربا بقرون لأن تاريخ الديانات لم يظهر فيها الا فى القرن التاسع عشر».

ونبغ فى قرطبة على عهد ملوك الطوائف كثير من الشعراء والأدباء منهم أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومى المعروف بابن زيدون كما نبغ فيها طائفة من المؤرخين لا يشق غبارهم ولم يتفوق عليهم أحد فيما بعد كالمؤرخ الثبت المدقق أبى مروان بن حيان صاحب التاريخ الكبير المسمى المتين فى ستين مجلدا وغير هؤلاء كثير.

☆

☆ ☆

ان الاستقصاء والبحث عن الشعراء والأدباء الذين نبغوا أو خدموا فى بلاط بلنسية ومرسية أو المرية حيث بنو طاهر أو بنو صمادح يبين لنا أن هذه البلاطات كانت زاهرة بمثل الوزير ابن عباس فى المرية وابن عبادة وابن الشهيد وابن شرف البرجى وابى عبد الله ابن الحداد بل كان الأمراء من بنى صمادح كلهم شعراء وظهر فى بلاطهم البكرى من علماء الجغرافية كما نبغ فى بلنسية ابن خفاجة وظهر أبو الحسن على بن اسماعيل النحوى اللغوى المتوفى عام 458هـ. صاحب كتاب المخصص.

عصر المرابطين

لم يكن التنافس بين ملوك الطوائف مقتصراً على ميدان العلم والأدب فان الخصومات السياسية والحروب بينهم لم تخمد نارها فأضعف بعضهم بعضا ولم يشعروا بنتيجة ذلك الا حينما انتهى ما كان سائداً من الخلاف بين النصارى فى ممالك الشمال فوحدوا صفوفهم وصار لاهم لهم الا مهاجمة المسلمين وافتتاح ثغورهم وقلاعهم وضجر الشعب الاسلامى من الضرائب التى أثقلت كاهله والجبايات التى كانت تستوجبها نفقات الأمراء المنغمسين فى الترف والبذخ.

أخذ الفقهاء ينظرون بشىء من القلق والجزع الى ما كانت عليه الأمة الاسلامية فى الأندلس ورأوا أن استيلاء النصرانية على الثغور وافتتاح القلاع تارة فى سبيل المشارطة وتارة فى سبيل المسالمة والمتاركة وتارة بالغلاب والمنازلة فى وقت كان فيه ملوك الطوائف متكالبين متنافسين وفى غمرتهم ساهون وعن عواقب دينهم لاهون هم أحدهم قينة تغنيه وكأس يحتسيه - يرجع الى التهاون بأمر الدين وتعطيل أحكام الشرع فى كثير من المناسبات فارتفعت أصواتهم بالشكوى.

فى ذلك الوقت أفاق ملوك الطوائف من غفلتهم فوجدوا أنفسهم بين أمرين : اما أن يخرجوا عن البلاد تسليما للمسيحية واما

أن يستغيثوا باخوانهم خارج الأندلس ويطلبوا حماية ملك من ملوك الاسلام المقتدرين.

كان الشعب يعضد هذا الحل الأخير والفقهاء ينادون به فنزل الأمراء عند هذا الرأى مرغمين.

فى ذلك الوقت كان الأمر قد استقر لدولة المرابطين فى المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين وهى دولة قامت على أسس دينية تجاهد من زاغ عن الشريعة شديدة العزم صارمة فى الضرب على أيدى الخارجين والمارقين عن حدود الدين الحنيف (عام 488 - 546).

فتوجهت سفارة من الأندلس فيها قاضى بطليوس وقاضى الجماعة بغرناطة وقاضى قرطبة والوزير الأشبيلى أبو بكر بن زيدون لمقابلة أمير المغرب يوسف بن تاشفين.

اجتاز يوسف البحر فالتف حوله ملوك الطوائف وفى أحواز بطليوس التقى بالفونس السادس فى يوم الاثنين 26 من شهر اكتوبر عام 1086 وانقض عليه بجيوشه فأوقع بالفونس وعصابته واقعة الزلاقة الشهيرة وبها ثبت قدم الاسلام من جديد فى اسبانيا أربعة قرون.

رجع الأمير الى مراكش ثم جاز البحر ثانية ورأى ما عليه ملوك الطوائف فاتهمهم بالاغماض فى أمره وداخله الناس فى شأنهم ودست اليه السعايات بهم وشاهد أن هؤلاء الملوك انغمسوا فى

الملذات وتهاونوا بمصالح الرعية ونبت بينهم التباغض والتحاسد فعزم على خلعهم وضم البلاد الى مملكته بالمغرب فاستفتى الفقهاء فافتوا له بأحقية عمله لانقاذ الاسلام والمسلمين.

أصدر هذه الفتوى أبو جعفر قاضى الجماعة بغرناطة وصادق عليها فقهاء المغاربة ويقال: ان كبير فقهاء الشرق وحجة الاسلام الغزالى أيدها فلم يمض زمن طويل حتى أصبحت اسبانيا الاسلامية تابعة لحكومة المغرب.

✡

✡ ✡

اختلف الباحثون فيما كانت عليه حال اللغة والأدب والشعر وفيما اصاب العلوم من تقدم أو انحطاط ابان حكم الدولة المغربية وظهرت آراء متباينة وأحكام متضاربة وكتب بعض المستشرقين نتائج غير مبنية على مقدمات ومن هؤلاء العلامة المستشرق دوزى أكبر خبير بلا منازع فى الدراسات الأندلسية.

زعم دوزى أن البلاد تأخرت فى عهد هؤلاء «الأفارقة» واعتبر عصرهم عصر فتور وانحلال فى جميع مرافق الحياة الأدبية والسياسية والاقتصادية قال: «لما خرجت اسبانيا من حكم ملوك الطوائف الى حكم ملك افريقى أتى كمحالف ثم خلع الملوك وقعت فى هذه البلاد

تغيرات فجائية مشؤومة فحلت الوحشية مكان المدنية والأوهام والخرافات مكان العقل والفطنة والتعصب مكان التسامح وأصبحت البلاد تحت حكم رعاع العسكر والفقهاء وعوضا عن تلك المحاورة العلمية السامية وعن محاضرة الفلاسفة العميقة وأناشيد الشعراء البديعة لم نعد نسمع الا صوت الوعاظ وسليل السيوف التى كانت تقرع الأرض»

بهذه الالوان القاتمة صور دوزى عصر المرابطين وقال عند ما تكلم عن الشعر فى هذا العصر «ان أكثر ما تمجه النفوس فى هذا الشعر هو روح الاستسلام الدينى الزاهد، فالشعر الاندلسى كان فيما قبل قويا كله حياة اجتماعيا يصف ملاذ العيش بدون مبالاة بالمستقبل، والشعراء كانوا يتغنون بالخمر واللذات كلها بدون اهتمام بأوامر الدين، والشعر كان يرمى الى حياة نشيطة مرحة وكان الشعراء ينتقدون الأمراء بلا هوادة وكانوا معجبين بعبقريتهم ونبوغهم وكل ما له صبغة نبل وجمال كان يثير حماسهم.

اما فى دولة على المرابط الملك الورع الزاهد فقد انقلب الأمر وصار الحكم للنساء والفقهاء عوضا عن الأسر والنبلاء وصار الشعر مرآة صادقة لذلك الزمن، فمن قوى خفيف الروح عديم المبالاة الى شعر مملوء بالخشية والترهيب والترغيب كئيب دينى وصارت أحوال الزمان قبيحة الى درجة أن الانظار ارتفعت من الأرض الى السماء.

فالناس كانوا يتألمون ولكن يستسلمون فى نفس الحال التى كان أهل القرن السابق يعاركون فيها رزايا الدهر.. واذا أراد الشعراء تقليد المثل العليا السابقة سقطوا فى التكلف والابتذال فليس هناك الامدائح باردة متكلفة موجهة الى الأمير باعتباره ممثلا للاله. عواطف ورع سخيفة مصاحبة لفساد فى الأخلاق وانحلال تام للنظام الاجتماعى»

ذلك هو رأى دوزى رويناه مطولا عن كتاب العلامة «قديرا» عن المرابطين وهو كما يرى القارىء رأى لا يستند على برهان معقول او منقول بل هو رأى عاطفى محض تشم منه رائحة تلك العصبية الممقوتة كالعصبية التى دبت بين العرب والمغاربة ايام الفتح الأولى وبقى أثرها فى بعض الكتاب والمؤرخين.

وانك لتشم من هذا الرأى أيضا رائحة تلك المثالب التى كان يوجهها الى المرابطين بعض المرتزقة من أذناب[1] ملوك الطوائف بعد ما صدهم الأمير يوسف عن التعيش من امتصاص دم الشعب ورفع عن المجتمع بعمله هذا ذلك العبء الثقيل الذى حمله أيام الطوائف.

ومن المستغرب أن عالما كدوزى يردد هذا الرأى وذاك دون

---

(1) من الشعراء أو من المسيحيين فان ملوك الطوائف فى القرن العاشر كانوا أوسع صدراً لمسيحى الشمال فلما جاء المرابطون اشتد الضغط عليهم وتبعهم الموحدون على سنتهم فنشأت آراء من المتعصبين ضد حكم المغاربة.

تمحيص أو نظر وكان لحكمه الأثر العميق فى كثير من الذين درسوا تاريخ الأندلس وآداب اللغة ويشعر القارىء بهذه النزعة فى كل كتابات دوزى عن المرابطين والطوائف. فهو لما تكلم عن ملوك الطوائف قارن بين باديس صاحب غرناطة والمعتضد[1] فوجد أن كلا منهما يتعاطى الخمر ويدمن عليها وكلا منهما يسفك الدماء، ولكنه يالأسف يفضل المعتضد لأنه اذا سكر استمع الى الشعراء ثم هو لا يقتل بيده وانما يكلف من يقوم بذلك ! فتأمل.

من هنا يعلم القارىء اتجاه دوزى فى بحثه وميله الى الطوائف

---

(1) قال دوزى: «كلا الملكين كان مولعا بشرب الخمر كما عرفت إلا أن باديس - لخشونته وجفاء طبعه - كانت تتمثل في مجلس شرابه الوحشية والجفاء وكان لبربريته الجافية لا يمنعه الخجل أن يسف فى شرابه اسفافا معيبا.

أما المعتضد وهو ذلك الرجل المثقف المهذب والانسان الرقيق الحاشية والملك العظيم الشان فما كان يقدم على هذا الأمر الا بشىء من الرقة والدعة واللطف وكان لما يمتاز به من الذوق ولطف الاحساس وشدة التمييز لا يخلو مجلس شرابه من شروط اللياقة وجمال الذوق وحسن التنسيق وكان يتعاطى الخمر وكان هو وندماؤه ينشئون فى امتداح هذه النقيصة الخمريات البديعة التى تكون آية فى لطف الشعور وجمال الذوق ودقة التعبير» ملوك الطوائف

ثم جاء فى صفحة 110 «فباديس فى ثورة غضبه يقتل بيده ضحاياه والمعتضد فى أحوال نادرة يتعدي علي وظيفة جلاده»

فقد اغتفر المعتضد حرق كتب العلامة ابن حزم[1] واستصفاء أموال رأس أسرة بنى زهر ونفيه ولكنه يجد من الوحشية والجهل والتعصب حرق فقهاء المرابطين لكتاب الاحياء ! وعلى هذا فقس.

لعل دوزى اعتمد على ما ورد فى كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشى فيما وصف به أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى قوله : «وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم وكان الى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين أقرب منه الى أن يعد فى الملوك والمتغلبين. واشتد ايثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء... فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس»

استنتج العلامة الهولاندى من هذا القول ما شاءت له ميوله وطبقه على عموم المرابطين، مع أن المراكشى يقول أيضاً «وانقطع

---

(1) هو أبو محمد بن حزم الظاهرى كان اليه المنتهى فى الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب اتهمه الفقهاء فأحرق المعتضد كتبه بأشبيلية فقال ابن حزم :

فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى

الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم عهد الرشيد والمأمون واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار وممن كتب لأمير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق فى البلاغة.... وكتب له ولابنه بعد أبى بكر الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون.

ورجع المراكشى الى نفس الفكرة فى موضع آخر فى كتابه قائلا: «ولم يزل أمير المسلمين من «المرابطين» من أول امارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك - كأبى القاسم بن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد المعروف بابن القبطرنة وأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال وأبى مروان بن أبى الخصال وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون وجماعة يكثر ذكرهم»

ولعل الصواب فى رأى العلامة الاسبانى قديرة عندما قال أثناء طرقه للموضوع «اننى لا أجد فى حكم العلامة دوزى على المرابطين تحاملا يرجع فيما أعتقد الى عداوته (للاكليروس) فى المسيحية

وتطبيقه تلك العداوة على فقهاء المسلمين وميله الى تعميم وقائع محدودة يستنتج منها استنتاجات مبنية على الوهم رغم ما عرف به العلامة الهولاندى من التضلع فى الدراسات الأندلسية»

لم يدم حكم المرابطين لاسبانيا أكثر من أربعين سنة وعلمنا مما تقدم على عهد ملوك الطوائف أن مدن الأندلس كانت غاصة بأهل العلم والأدب فلو سلمنا جدلا بعدم كفاءة الدولة المرابطية فان مدة حكمها غير كافية لأن تنزل بالشعر والأدب من القنة العالية - التى كان قد وصل اليها - الى الحضيض، أمن المعقول أن تتبلبل الألسن وتموت المشاعر وتركد العاطفة فى مدة هى دون نصف قرن !؟

على اننا لا نجد فى هذا العهد ما يدل على تغير الحالة الفكرية فالمواد العلمية التى كانت تدرس من قبل هى هى ومراكز التعليم ما زالت طافحة مزدهرة والرحلة فى طلب العلم ما زالت مستمرة ولم يقع ضغط أو تشديد على العلماء يدعوهم الى الاختفاء أو الهجرة مثل ما وقع فى عهد المنصور بن أبى عامر، بل ان الحكم اللامركزى الذى كان سائدا على عهد ملوك الطوائف بقى قائما على عهد المرابطين لأنهم اقتصروا على تعيين الولاة بدل الملوك السابقين.

وهؤلاء الولاة اقتبسوا كثيرا من النظم التى وجدوها واخذوا فى حماية الأدباء والشعراء والعلماء وأصبحت بلاطاتهم شبيهة ببلاطات

سلفهم من الطوائف حتى ان أبا بكر والى سرقسطة استكتب فى بلاطه أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره كثير.

وذلك ما حمل المستشرق الاسبانى ريبيرا على القول «ان أعلى قنة بلغتها الثقافة فى اسبانيا الاسلامية كانت فى ذلك العهد الذى كان له من الأثر فى أوربا كلها ما لا يماثله الا أثر النهضة الايطالية عندما عرف الأوربيون المصادر الاغريقية»

ويعضد المستشرق بلنسية هذا الرأى بقوله: «ان الاستقصاء والبحث يجعلان الحق فى جانب خوليان ربيرا فالشعر وصل الى درجة عالية ولم تكن الموضوعات الأخرى متأخرة عن الشعر»

واذا حق لعصر المرابطين أن يفتخر بظاهرة من مظاهر الحياة الأدبية فان أول ما يفخر به هو ظهور جماعة من العلماء أخذوا فى درس وتدوين آداب بلادهم وحفظ آثار رجالهم من الضياع والنسيان وعلى رأسهم ابن بسام [1] صاحب الذخيرة فى محاسن الجزيرة فى أربعة أجزاء وكانت مبعثرة فى مكاتب الشرق والغرب الى أن وفق المستشرق الفرنسى «ليفى بروفنسال» الى جمع نسخة كاملة منها وأبو القاسم ابن بشكوال صاحب الصلة فى تاريخ علماء الأندلس من فتحها الى

---

(1) أشرنا فيما سبق الى تأليف «الحدائق» لابن فرج وتأليف «البديع فى وصف الربيع» لأبى الوليد الحميرى.

زمانه وله كتب تاريخية أخرى وعبد الله بن ابرهيم الحجارى صاحب كتاب المسهب فى فضائل أهل المغرب وقد نقل عنه المقرى فى كتابه نفح الطيب كثيرا ومن هؤلاء العلماء مؤلف قلائد العقيان الفتح بن خاقان باسم أحد أمراء المرابطين وغير هؤلاء كثير كالادريسى وابن سهل وجبير بن افلح الأشبيلى وأبى الصلت الدانى.

فهذا العصر كما ترى هو عصر ازدهار الحياة الفكرية خلافا لمن زعم بتدهور الحياة الأدبية.

لقد تدارس الناس فيه كل أصناف المعرفة من طب وفلسفة وعلوم رياضية وتاريخ كما امتاز فوق ذلك بأدب شعبى يغنى فى الأعياد الاسلامية ومواسم الحصاد والمناسبات القومية بلغة ليست عربية خالصة ممثلة فى زجل ابن قزمان ومدرسته وكان له الأثر القوى فى آداب أوربا حسب ما وصل اليه بحث المستشرق «خوليان ربيرا»

عصر الموحدين

ولكن سرعان ما دب الانحلال الى جسم الدولة المرابطية، واختلف القواد والولاة فى اسبانيا وغمرهم الترف وانغمسوا فى ملاذ الحياة وقوى الانحلال السياسى والاجتماعى، واشتد ضغط الولايات المسيحية وتكرر هجومها على الامارات الاسلامية أواخر عهد المرابطين.

وقامت ثورة المريدين وطلبوا المساعدة من الدولة الموحدية القائمة على أنقاض دولة المرابطين فى المغرب وهى دولة دينية قامت برياسة محمد بن تومرت بيد أن الحياة لم تمتد به حتى يرى النصر الذى أحرزه اتباعه فخلفه بعهد منه تلميذه عبد المؤمن بن على.

عبر عبد المؤمن بن على البحر بجيش عظيم وتغلب على الأندلس ورتب أمور الجزيرة وأحوالها وجعل عليها الولاة من قبله.

تابعت الحياة الفكرية سيرها على يد الحكومة المغربية الناشئة التى أعادت الى اسبانيا الاسلامية مجد أيام الأمويين، واكسبت الحياة السياسية فخامة وعظمة، وبعثت فى الشعب نهضة علمية أدبية فلسفية كان الأمراء من الموحدين قادتها ودعاتها ويكفى دليلا على ذلك ما ذكره مؤرخ الدولة المراكشى فى كتابه المعجب اذ قال عن أمير المسلمين يوسف بن عبد المؤمن «ولم يزل يجمع الكتب من أقطار

الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب»

أجرى الموحدون الأرزاق الواسعة على الشعراء وآثروا أهل العلم وأحسنوا اليهم اعظاما لهم وتنويها بفضلهم فكتب لعبد المؤمن ابن على وابنه من بعده الوزير الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي الرصافى وأبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش ومن أبرز كتاب بلاطهم ابن محشوة وابن ميمون وعلى بن حزمون المرسى ومحمد بن عبد ربه وأبو جعفر بن يحيى الحميرى شيخ أبى يعقوب.

وقد نسج الولاة المغاربة فى الاندلس على منوال ملوكهم اذ كان أبو عثمان بن عبد المؤمن فى غرناطة «[2] عضدا للعلم محبا للآداب مؤثرا لاهلها يهتز للشعر ويثيب عليه حتى اجتمع له فى بلاطه عصابة من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب»

وفى هذا العصر ظهرت الفلسفة الارسطاليسية التى لم يكن بدا أثرها بيّنا من قبل وتبوأت الدراسات الفلسفية عموما المقام الأسمى ولعلها وجدت مشجعا فى مذهب ابن تومرت فقدقام بصورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر ودعا قبائل مصمودة الى الاعتقاد على طريقة هى خليط من مذهب الاشاعرة والمعتزلة والشيعة فكان

(1) عبد الواحد المراكشي فى كتاب المعجب.

يثبت الصفات الالهية ويدعو الناس الى المهدى المنتظر. وقد وجدت دعوته فى النفوس قبولا واعتنقها الناس وتعصبوا لها من بعده وأخذ اتباعه يشجعون الفلسفة لاتصالها بعلم الكلام فى كثير من مسائله بل أخذ ابو يعقوب المنصور فى نقلها وجمع كثير من فنونها وبدأ بعلم الطب قال المراكشى: «ثم تخطى ذلك الى ما هو اشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى.

استقدم ابو يعقوب المنصور أئمة الفلاسفة والمتكلمين والأطباء من الأندلس وحظى عنده أبو بكر بن طفيل أعلم أهل اسبانيا فى عصره وأعرفهم بفلسفة الاغريق وهو صاحب رسالة حى بن يقظان وقد أشار على تلميذه أبى الوليد محمد بن احمد بن رشد - تحقيقا لرغبة أمير المسلمين المنصور - بتلخيص كتب «المعلم الأكبر» بلغة يسهل فهمها.

ألف ابن رشد عدة مؤلفات فى الفلسفة والطب والنجوم وكان اول من اتقن مذهب ارستطاليس فشرحه وأكمله وعنه نقل لاوربا فاعتبروه أول من أدخل فلسفة المعلم الاغريقى للمدارس المسيحية.

وبرز على طريقته فى محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين الفيلسوفان اليهوديان ابن ميمون ويهوداهالوى.

اما الفلسفة الصوفية الافلاطونية فقد تمثلت فى شخصية

محيى الدين[1] بن عربى وكان كما يقولون: «ظاهرى المذهب فى العبادات[2] باطنى النظر فى الاعتقادات» ومن تلاميذه «ابو محمد عبد الحق بن ابراهيم» الشهير بابن سبعين وهو من اكابر الصوفية ويرى الاستاذ العلامة آسين بلاسيوس ان آراء محيى الدين بن عربى كان لها أثر فى الشاعر الايطالى دانتى فيما تخيله من وصف الجنة والنار.

وقد امكن للفلسفة ان تعيش بعد المحنة التى اصابتها فى عهد أمير المسلمين ابى يوسف يعقوب اذ «أمر باحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علوم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة» وذلك لأن هذا الأمير نفسه بعد ما عاد من اشبيلية الى مراكش مقر الخلافة جنح الى الفلسفة وأرسل يستدعى أبا الوليد بن رشد من الأندلس للاحسان اليه ومساعدته فى نشر آرائه.

ان علماء عصر الموحدين فى اسبانيا وأدباءه يكاد عددهم لا يحصى ويكفى أن نشير الى بعض البارزين منهم كمالك بن وهيب محشى كتاب المجسطى والعالم الرياضى أحمد بن عبد الرحمن البطروجى

---

(1) هو الشيخ محيى الدين بن عربى محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة 560 .

(2) نفح الطيب

وفى الطب أسرة بن زهر وفى النبات ابن البيطارو فى النحو عمرو ابن محمد بن عمر المعروف بالشلوبين وسعيد البطليوسى ونبغ فى التاريخ أحمد بن محمد الخلالى المعروف بابن الأبار وظهر أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى وشرح مقامات الحريرى كما نبغ أبو جعفر بن سعيد من الشعراء وبلغ الفن على عهد هذه الدولة من الفخامة والسمو ما دل على شأن عظيم حتى انهم قالوا ان جامع أشبيلية الذى بناه المهندس جابر بأمر يعقوب المنصور فاق مسجد قرطبة فى اتساع الارجاء وفخامة البنيان حسب وصف تركه أحد المعاصرين من المسيحيين ولم يبق الدهر لنا الا مناره المعروف «بخرالدا» عند الاسبان أما مسجد حسان بالرباط فيقال انه كان قائما على اربعمائه سارية أضف اليه منار الكتبية الفخم فى مراكش الى غير ذلك من الآثار التى تدل على ما كان لهم من سلطان.

وبالجملة يمكننا[1] أن نقول أن الحياة الفكرية فى الأندلس بلغت

---

(1) جاء فى كتاب اسبانيا والبرتغال لمؤلفه J. B. Trend تعريب الأستاذ مؤنس عن عصر المرابطين والموحدين «هو العصر الذى ظهر فيه كثيرون من أعلام الثقافة الاسلامية الاسبانيه، فظهر البكرى والادريسى الجغرافيان وابن زهر الطبيب فى عصر المرابطين وظهر فى عصر الموحدين الذين أعقبوهم ابن باجة وابن رشد وابن طفيل من الفلاسفة وابن عربى الصوفى المرسى وابن ميمون العالم اليهودى وابن جبير الرحالة»

أوجها على عهد الدولتين المغربيتين ونضجت نضوجا جعل انتاجها خصبا ومتنوعا فى كل لون من ألوان المعرفة ولو لم يكن هذا العصر أنجب الا البطروجى وابن باجة وآل زهر وابن طفيل وابن رشد لكفاه ذلك فخرا وتفضيلا على العصور السالفة.

ونريد أن نلفت نظر القارىء الى ما وقع من امتزاج الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس واختلاطها الى حد بعيد فى هذا العصر فكثير من علماء المغرب وخاصة علماء سبتة كانوا يقضون شطرا من حياتهم بالأندلس سواء فى تدريس العلم أو فى وظائف الدولة وكذلك الطلبة الذين كانوا يقصدون التحصيل والاستفادة، أما علماء الأندلس وأدباؤها فلم يبرز منهم واحد الا وقصد مراكش عاصمة الدولة ومقر حكمها سواء بدعوة من أمرائها، أو بما للمركز السياسى فى البلاد عادة من الجاذبية ولقد استقر بعضهم هناك وبعضهم اقتصر على الرحلة والاستطلاع ثم عاد الى وطنه.

ان هذه الامبراطورية المغربية العظيمة صارت أثناء القرن السادس والسابع المثل المحتذى فى الشرق والغرب ويقول ريبيرا: «ان ما كانت عليه من النشاط الفنى والعلمى والأدبى والفلسفى كان له أعمق الأثر فى اوربا المسيحية فساعد على بعث نهضة فى الغرب عند ما ترجمت المؤلفات العربية الى اللغات الأوربية»

مملكة غرناطة

ضعف أمر الدولة الموحدية فى المغرب وأخذت أجزاء تلك الامبراطورية العظيمة فى التناثر وقامت ضدها ثورات عجزت عن قمعها وهزمت جيوشها فى الأندلس هزيمة شديدة فى موقعة «العقاب» الشهيرة، وكان من نتيجة هذا الانحلال ان اقتسم الاندلس ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأخذ يستعين بعضهم ضد بعض بالمسيحيين وهؤلاء ينتهزون فرصة الخلاف ويوسعون ملكهم الى ان تم لهم ما أرادوا ولم يبق فى ملك المسلمين الا جزء يسير فى اقصى جنوب الجزيرة منه تكونت مملكة غرناطة تحت سلطة بنى الأحمر الخزرجيين.

أما فى المغرب فقد قامت على انقاض دولة الموحدين الدولة المرينية التى خرجت عن تقاليد ملوك المغرب فى محاولة ضم الأندلس الى مملكتهم وحصرت عنايتها فى افريقيا معرضة عما يجرى فى بر العدوة مكتفية بمد الاعانة الى المجاهدين من حين لآخر رغم ما كان لها من القوة والبأس ولذا فقد بقيت دولة بنى الأحمر تجاهد النصرانية معتمدة على نفسها وعلى المدد القليل الذى كان يأتيها من المغرب

فى مملكة غرناطة الصغيرة اجتمع أولئك العلماء والأدباء الذين شتتهم احتلال النصارى لديارهم فبعثوا حركة علمية وأدبية جعلت

المعاصرين يتخيلون أنهم فى قرطبة أيام عزها ومجدها رغم اضطراب الحال والحروب المتواصلة فظهر هناك مثل لسان الدين بن الخطيب وابن حيان وغيرهما من أئمة الكتاب والمؤرخين والفقهاء كأبى عبد الله محمد بن رشيد الفهرى السبتى الرحالة الشهير وعلى بن عبدالحق المعروف بابن الحسن الصغير الذى أخذ عنه جلة العلماء والفقهاء وأبى القاسم محمد بن احمد المعروف بالشريف الغرناطى قاضى بنى الأحمر وخطيب الأندلس على عصره وابى زكرياء بن هذيل وأبى بكر بن جريم وابن سيد الناس وابن عاصم صاحب التحفة.

وكتب لبنى الأحمر الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صفوان المالقى وأبو الحسن بن الجياب شيخ لسان الدين بن الخطيب.

ومن القضاة ابو بكر يحيى بن مسعود المحارب ثم ابنه وابو عبد الله محمد بن يحيى الأشعرى المالقى شيخ لسان الدين وغير هؤلاء من الأدباء والعلماء الذين أنجبتهم الاندلس أو اتصلوا بها من ابناء المغرب وكان لهم أثرهم فى الحياة الثقافية هناك كأبى العباس أحمد ابن محمد المعروف بابن البناء الفقيه الفيلسوف الرياضى صاحب كتاب التلخيص وكلهم يبرهنون على ما كان لتلك المملكة الصغيرة من الفضل على الثقافة مع ان نار الثورات الداخلية والحروب مع المسيحيين لم تخمد.

وكانت الحياة المدنية والعمرانية فى غرناطة على درجة عالية

قال عطوفة الأمير شكيب أرسلان فى كتابه الحلل السندسية: «قال بعض المؤرخين ان مملكة غرناطة لعهد السلطان أبي الحسن على والد أبي عبد الله آخر السلاطين المسلمين فى الأندلس» كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة وورد فى التاريخ العام للعلامة الشهير ان مملكة غرناطة فى تلك الأيام كانت تحتوى ثلاثين مصراً وثمانين مدينة صغيرة وعدداً لا يحصى من الأبراج والحصون وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين فى الأندلس بأربعة ملايين نسمة

✡

✡ ✡

لم تستطع غرناطة أن تقاوم دائماً وحدها تلك الجيوش الجرارة التي كانت تهاجمها بلا انقطاع فسقطت فى النهاية وخفق علم النصرانية على تلك البقية الباقية من تلك المملكة الإسلامية فى 2 من ربيع الاول 897 فانطوى فردوس الاسلام المفقود تحت لواء الصليب واضطر كثير من العلماء الى الهجرة للمغرب أو للمشرق حيث عملوا على نشر العلم وتدعيم اركانه كما فعل أسلافهم من قبل عند ما هاجروا الى اسبانيا بعد الفتح الاسلامى

يمكن القول ان معالم الثقافة العربية قد انطمست بزوال السلطة

السياسية من يد المسلمين اذ كان هم الملوك من المسيحيين والشغل الشاغل اهم هو العمل على تنصير ما بقي هناك من المسلمين واجبارهم على اتخاذ اللغة والتقاليد الاسبانية ديناً وشعاراً كل ذلك بقسوة وعنف وان الانسان ليقشعر جلده عند قراءة أوصاف المؤرخين لما كان يحدث.

ومع ذلك فقد بقى كثير من القصص والمواعظ الدينية تتداول بيد «الموريسكوس وبقوا محافظين على الحروف العربية لكتابة اللغة الاسبانية وذلك ما عرفه الاسبان بالأدب الجامعى [1] نسبة الى الجامع (Aljamiado)

---

(1) ترى فى الصفحتين الآتيتين صورتين من كتابة الموريسكوس

ولئن كانت أيدى الرهبان قدمت كثيرا من كتب العلم والأدب طعمة للنيران بعد طرد المسلمين فانها كانت عاجزة عن محو أثرهم العميق والقضاء على صرح مدنيتهم الفخمة .

بل إن حركة الترجمة واقتباس العلوم التى بدأت عند دخول النصارى لطليطلة بتأسيس مدرسة المترجمين ازدادت نشاطاً وانتشاراً، قال الأستاذ العلامة بلنسية : «ان دراسة العلوم العربية من تنجيم ورياضيات وطب بلغت أوجها فى عهد الفونصو العاشر وفى ذلك العهد ترجم القرآن والتلمود وكتب الجفر وعمت كتب المواعظ والأمثال المستمدة من الحكمة العربية وترجمت كتب التسلية مثل كتاب الشطرنج ووقع تطبيق الموسيقى العربية على الأغانى الدينية وعرفت كتب القصص مثل كليلة ودمنة والسندباد وفى ذلك العهد أيضا أسست فى مورسية ثم فى أشبيلية مدرسة للدراسات العليا اجتمع فيهما خيرة علماء الملل الثلاث - كل هذا قام به الملك الذى استحق أن يلقبه التاريخ بالملك العالم.

ومما لا شك فيه ان الأناشيد والأغانى الشبيهة بالملاحم كانت شائعة بين المسلمين ولكنها فقدت اليوم وكان لها أثرها فى نشأة الملاحم الاسبانية والافرنسية كما دلت على ذلك قطع أوردها بعض المؤرخين كابن القوطية وأظهرها ريبيرا، كما أن الشعر الغنائى

فى القرون الوسطى فى الآداب المتفرعة عن اللاتينية تأثر فى أصله بالطريقة التى استنبطها مقدم فى القرن العاشر وبالزجل والموشحات التى انتشرت مع الموسيقى الأندلسية الشرقية فى فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا وبقيت نماذجها حية فى اسبانيا أثناء القرن السابع عشر».

ذاك ما يقوله المستشرق الاسبانى وهو قول يبين ما كان للحياة الأدبية والفنية من الأثر فى نشأة الأدب الأوربى وفنونه، قال أحد الأدباء فى تعليق له على تراث الاسلام: «وهناك أيضا أزجال وموشحات واغان شعبية بلغة التخاطب الدارجة وفى ميدان هذا الأدب الشعبى تقابل الشرق والغرب فى ميدان واحد وليس من المعروف بعد كيف بدأ ظهور الشعر الغربى فى القرون الوسطى ولكن الواقع أن كثيرا من خصائصه يصعب تفسيرها ما لم يتلمس فيها بعض الأثر للعرب ولقد عرف العرب الشعر بانه هو الكلام الموزون المقفى ولم يوجد شعر عربى دون قافية ولكن شعراء اليونان والرومان ولو أنهم عرفوا الأوزان الشعرية الا أنهم لم يتقيدوا بالقافية فاستعمل مقلدوهم فى القرون الوسطى الأوزان اللاتينية غير المقفاة ولكننا نجد فى الشعر الغربى الجديد ألوانا من الشعر قائمة على النبرات والقافية لم تكن مأخوذة من غير شك عن اللاتينية ويمكن

أن نستخلص من هذا على الأرجح أن المغنين فى اسبانيا وجنوب فرنسا لا بد أن يكونوا قد أخذوا هذا النوع الجديد من فنونهم عن عرب اسبانيا.

وكان المغنون والمنشدون الغربيون يلقون أغانيهم وأناشيدهم فى قصور الملوك وينتقلون من قطر الى قطر ومن السهل أن نتصور أنهم تقابلوا فى اسبانيا بمغنى العرب فأخذوا عنهم انغاما جديدة واشعاراً جديدة وموضوعات جديدة ان الأصول الأولية التى أخذها الافرنج عن العرب تطورت الى ضرب راق من ضروب الفنون الأدبية ظهر فى بروبانسيا وكان الشعر البروفنسى بدوره هو الذى ألهم دانتى أول فحول الشعراء الذين ظهروا فى أوروبا الغربية».

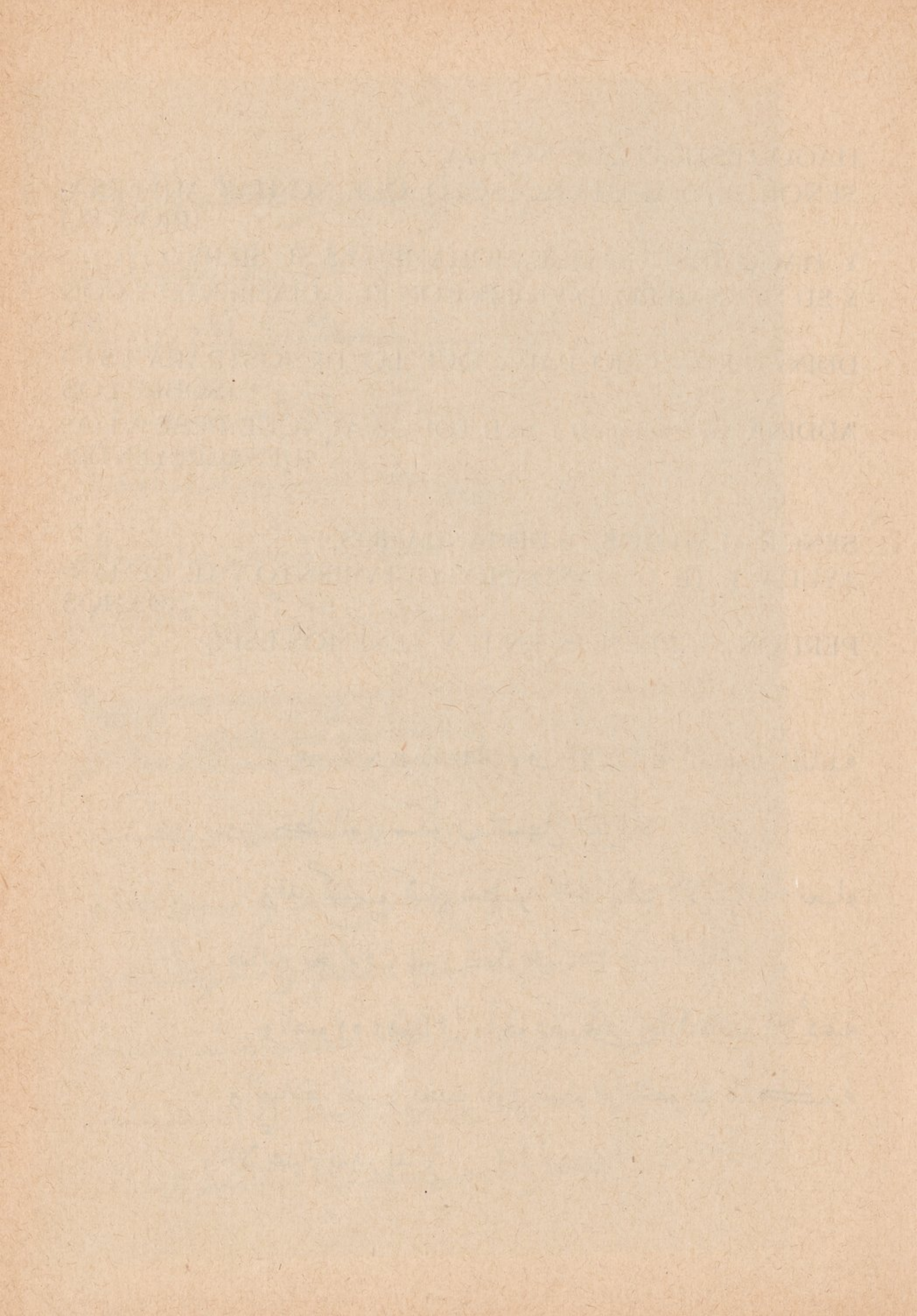
ولنختم هذا العرض المستعجل لاطوار الحياة الثقافية بالاندلس بكلمة للكاتب الأنجليزى جوزيف مكيب Joseff Mouabe (1) وهى تبين لك أثر الثقافة الأندلسية عموماً فى الحضارة الحديثة قال: وهذه الأخبار وان كانت مختصرة جداً فهى كافية فى الدلالة على ان مسلمى الأندلس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة فى أهم نواحيها والحق أقول إن هلاك ثقافتهم تحت ستار ما يسمونه

---

(1) انظر العدد الثامن من المغرب الجديد السنة الاولى

«طرد الكفار» قد أوقف رقي النوع البشري مدة من الزمن ومهما
كان فلم يمكن اطفاء أنوار علومهم كلها. ولهم اولا ثم لليونانيين
الأقدمين بواسطتهم يرجع الفضل فى ايجاد طلائع العلم من النصارى
ككوربيرت وروجيربيكى والبيرت الكبير وكروستيت فهم الذين
علموهم فاقرأ مثلا سيرة كوربيرت تجده قد ولد فى جنوب فرنسا
وتعلم فى برشلونة ثم فى جامعة قرطبة فكل ذرة من علمه المعتبر جاءت
من مسلمي الأندلس، فتح كوربيرت مدرسة فى ايطاليا فقامت قيامة
الرهبان فأثاروا الرعاع عليه فأحرقوا مدرسته وكسروا أدواته
وشتتوا شمل تلاميذه أما الحكام الماديون فلم يسعهم ان يكرموا
عالمهم النصرانى الذى ليس لهم غيره وقد صار أسقفا ومن مساخر
التاريخ أنه صار بعد باباوسمى سيلفستر الثانى وكان ذلك فى اسفل
عصور البابوية وبعد اربع سنين مات وهناك تهمة قوية فى انه مات
مسموما فلعنت الكنيسة ذكراه ثم هى اليوم تفخر به.

لكن روح علوم مسلمى الأندلس الحقيقية لم يمكن قتلها فاخترق
نور مدنيتهم المشرق ضباب الخرافة والجهل وفتح شيئا من الحياة
ومكارم الاخلاق وحرك رغبة أوربا فى العلوم العقلية وفى القرن الحادى
عشر «التالى لعصر قرطبة الذهبى» أخذت أوربا تخرج من بربريتها



HAGO TESTIGO QUE NO HAY
SEÑOR SINO ALAH UNO SOLO, QUE NO HAY ADVERSA-
(RIO A EL)
Y HAGO TESTIGO QUE MOHAMED ES SU SIERVO
Y SU MENSAJERO ENVIOLO CON EL GUIAMIENTO Y CON
(EL
DDIN VERDADERO PARA QUE LO DEMOSTRARA (SE)
(SOBRE LOS
ADDINA(las religiones) Y SER TODOS AUNQUE PESE A LOS
(DESACREYENTES

* * *

SENOR ALAH NOS TE DEMANDAMOS
AYUDA Y TE DEMANDAMOS GUIAMIENTO Y TE DEMAN-
(DAMOS
PERDON Y CREEMOS EN TI Y TENEMOS ESPE-

ترجمة مكتوبة بالحروف الاسبانية للصفحة المقابلة
من خط الموريسكوس لتسهل القراءة .
وقد كتب كل سطر بالحروف الاسبانية تجاه
مقابله بحروف الموريسكوس .
والصورة رقم (1) مأخوذة عن كتاب للأدعية
والعبادة كتب بخط الموريسكوس محفوظ بالمكتبة
الأهلية بمدريد .

ليظهره على الدين كله ولو كره

المشركون [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

اللهم إنا نستعينك ونستهديك

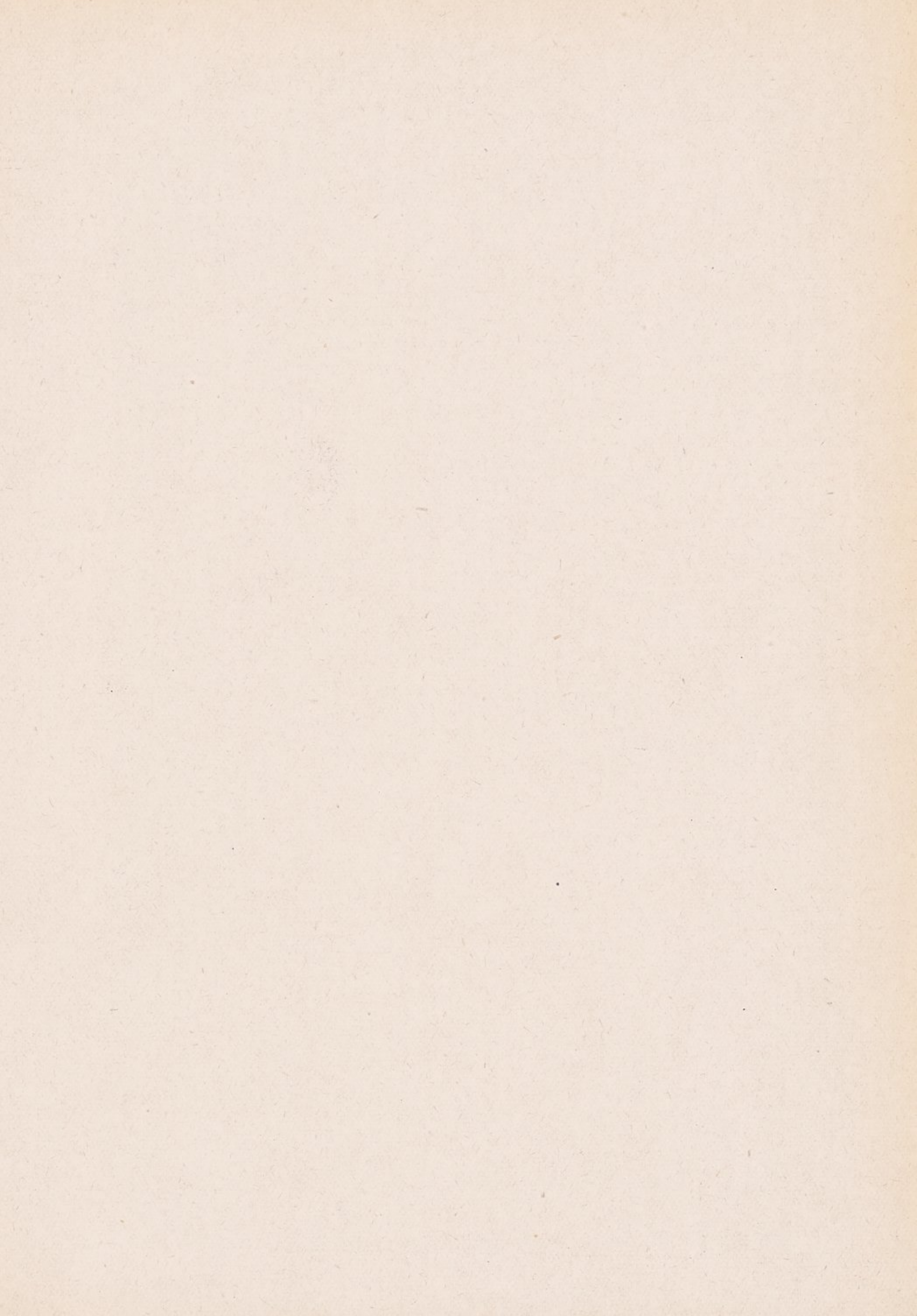
ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل

عليك ونخنع لك ونخلع ونترك من

يفجرك [illegible]

[illegible]

[illegible]



RANZA EN TI Y NOS HUMILLAMOS A TI Y HAREMOS Y (DESAM-
PARAMOS A QUIEN DESCREE EN TI ..

* * *

SENOR ALAH
A TI ADORAMOS Y A TI ORAMOS ASSALA Y NOS ASYA- (DAMOS
Y A TI SON NUESTRAS ANDADAS Y TENEMOS TEMOR
A TU TORMENTO EL FUERTE Y A TU TORMENTO CON LGS
DESACREYENTES ES CONSIGUIENTE

* * *

CUANDO QUIERAS TOMAR EL UODO (ABLUCIONES) PO- (NERTE HACER
CARA ALKIBLA Y PRINCIPIAS A LAVARTE LAS MANOS (CARA
Y DIRAS : (EN EL NOMBRE DE DIOS CLEMENTE Y MISERI- (CORDIOSO)

ترجمة مكتوبة بالحروف الاسبانية للصفحة المقابلة من
خط الموريسكوس لتسهل القراءة.
وقد كتب كل سطر بالحروف الاسبانية تجاه مقابله
بحروف الموريسكوس.
والصورة رقم (2) مأخوذة عن كتاب للأدعية
والعبادة كتب بخط الموريسكوس محفوظ بالمكتبة
الأهلية بمدريد.

زنترة انيت إنسن أملمن آيـ إهلن منز إداشف
بزمنز آكيانذ اشكراكنيت اللهم انا لك
نعبد ولك نصلي ونسجد واليك نسعى
ونحفد نرجوا رحمتك ونخاف عذابك
الجد إن عذابك بالكفرين ملحق نانز اله
آيـ آدزمنز آيـ هززامنز آكصلـ إنسن آتحمة منر
إآيـ منف نوا اشتر زآنخذ منز إتاتا منزتا منز
آنـ نزمانت الفوا زتاكات نزمانت كنلنر
ذا اشكار ابانتا نزاشد آكيغيا انتا

دعاء الوضوء

فو نذكا زنسمز الوضو بنمازتا آنز
داكنز اللفنك يرا نزتنز النيك آلمنه ذارا
إيدزنز بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني
أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك



بسبب التقدم السياسى الذى نشأ عنه التقدم الاقتصادى فصارت القرى مدنا والمدن الصغيرة أمصارا واحرزت العامة قسطا من العلم وطمح الاشراف الى المعالى ولما حصلت اليقظة فى الممالك النصرانية كان لا بد وأن تؤثر فيهم المدنية الاندلسية الزاهرة.

الشعر

نظـرة عـامة

عرفت مما تقدم أن الأندلس بعد الفتح بقيت مضطربة هائجة ولذا كانت البيئة متجهمة الحظ للشعر وكانت أغلبية الفـاتحين من المغاربة الذين لم تكن عوامل الاستعراب عملت فيهم أثرها فاعتبرت مدة الامراء هزيلة بكيئة الصوت طويلة الصمت عن الغناء الشعرى. ومع أننا لا نشك فى وجود شعراء بين رجـال الجيش لما للشعر من المقـام بين العرب فهو أساس ثقافتهم وجمـع أفراحهم وأتراحهم الا أننا لم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على اسماء لشعراء يتناسبون مع الجمهرة العربية فى البلاد وقد ذكروا فى طائفة الكتاب أسماء بعضهم كأبى عثمان عبيد الله بن عثمان وأميـة بن زيد وعبيـد الله بن خالة .

ولما استقر الامر لبنى أمية بوصول عبد الرحمن الداخل وشجعوا - كمـا عرفت - على الهجرة من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق طلبا للعلم وجلبا للمدنية، قامت نهضة فى الأندلس كان الشعر من أنصع وأفضل مميزاتها فاتخذ بعض الشعراء شعرهم أداة للكسب

وانتجعوا به أطراف البلاد يمدحون الملوك والامراء والقواد الذين أجزلوا لهم العطايا ومنحوهم عطفهم وبرهم محاكاة لخلفاء بنى العباس فى الشرق.

وتحدثنا كتب الأدب أن هؤلاء الأمراء كانوا يميلون الى قرض الشعر وأن الخلفاء جادت قرائحهم بشعر له حظ من الفن ونصيب من الجمال والناس كما يقول ابن خلدون: «على دين ملوكهم ومتى تفتحت بالشعر لهوات الملوك والامراء صار صقال الالسن ومفتاح الشفاه»

بل اعتبر بعض الفقهاء والحكماء والوزراء شعراء لان تلك الصفة لم تكن مزرية بصاحبها كما كان الحال فى الشرق بل كانت فى الأندلس من سمات الفضل ووسائل النبل وأداة الظرف عند الخلفاء والخاصة والعامة منذ بزغت شمس الحضارة الاسلامية فى تلك الربوع الى أن دانت بالغروب قال فرانسيسكو فيلاس باسا[1] «كان قواد العرب اولا ومن بعدهم الخلفاء والامراء مثالا للشعب فى بث الفكرة الأدبية فى الأندلس لا تكاد تستثنى منهم واحدا! لم يخلد اسمه بقصيدة غرام أو حماسة منذ أنشأ عبد الرحمن الاول تحيته الوطنية التى خاطب بها النخلة بعد أن غرسها بيده على ضفة النهر الكبير الى أن أنشد أبو

(1) نقلا عن حضارة الاسلام لكرد على.

عبد الله على ضريح مريم موشحته المشجية راصفا قوافيها بفلذات قلبه المنفطر الدامى وان انس لا انس المعتمد بن عباد آخر ملوك اشبيلية وفى رأيى أن شعره أجلى مثال للشعر العربى ان لم يكن بجماله فبالتشاؤم الذى فيه وبالشؤم الذى رافق حياة صاحبه وكان حلقة من سلسلة الابطال الذين ناوأهم القدر فى مختلف أدوار التاريخ. ونسج الاشراف على منوال خلفائهم فنمت رياض الشعر الغنائى وازدهرت فى ظلال السيوف حتى تفشت عدوى الاشتغال بالأدب بين أساقفة النصارى ممن استعربوا فى ذلك العهد ... وقامت النفوس الطواقة الى العرفان فى أقاصى البلاد تبرد شفاهها الظمأى بترشف ينابيع الحب والسلام المتفجرة من الشعر العربى فى قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة.



بلغ الشعر غايته فى عصر ملوك الطوائف واعتز الأندلسيون بشعرائهم وأخذوا يجمعون شعرهم فى الدواوين ويترجمون ويجمعون أخبارهم خوفا عليها من الضياع وساعدت تلك البيئة على دفع الشعراء الى ميدان المنافسة فصفت قريحتهم ولطفت عباراتهم واصطبغ كلامهم برقة وجمال لم يعرفها الشعر الأندلسى من قبل ولا من بعد.

ولا حاجة الى الاسهاب فى الكلام على عناية ملوك الطوائف

وعطفهم بالشعراء فالمعتضد بن عباد حسب رواية النفح اتخذ دارا خاصة لهم جعلها ناديا يجتمعون فيه يوما من أيام الاسبوع يتناشدون الشعر ويتدارسون الأدب ويروون أن ادريس بن يحيى بن على كان هو وأسلافه من بعده فى ذلك العهد يلقون الوفود وينشدون الشعر من وراء حجاب تشبها بخلفاء بنى العباس. ولا نغفل هنا هذا الدور العظيم الذى لعبته المرأة فى الأدب الأندلسى أثناء هذا العصر خاصة لما امتاز به من حرية زائدة وخروج عن التقاليد الاجتماعية المعروفة .



وقد مر بك آنفا ان عصر الدولتين المغربيتين فى الأندلس هما أخصب طور فى الحياة الفكرية والشعر العربى هو مظهر الثقافة ومرآة الحياة العقلية ولذا فانك لا تكاد تجد فقيها من فقهاء هذين العصرين أو نحويا أو متكلما أو فيلسوفا أو طبيبا أو رياضيا أو مؤرخا أو عالما الا وهو يقول الشعر وله القريض ولقى الشعر بعد ملوك الطوائف من الموحدين تقديرا وتشجيعا كما وجد من أمرائهم فى الأندلس عناية وعطفا.

وقد امتدت الحياة كما مر بك بكثير من شعراء الطوائف

فعاصروا المرابطين ومدحوهم ووقفوا ببابهم ووجدوا من آذانهم إصغاء ومن كرمهم فيضا واحسانا كابن عبدون راثى بنى الافطس وابن خفاجة مغنى جمال الأندلس وغيرهما.

وظهرت فى الشعر ظاهرة جديدة وهى ذكر الفلسفة والتصوف خاصة فى شعر ابن عربى[1] الحاتمى وابن سبعين وغيرهما ممن له اتصال بدراسة الفلسفة والتصوف كما ترى ذلك فى المنتخبات التى أوردناها فى غير هذا المكان.



وبقى الشعر مزدهرا منتشرا فى أطراف الأندلس الى أن ضاقت مملكة المسلمين واقتصرت على غرناطة حيث نبغ عدد من الشعراء كلسان الدين بن الخطيب وغيره وما زال الشعر محرزا على عطف الأمراء وعناية الأندلسيين فى ذلك الملجأ الاخير الى أن تم ما أراده الله بخروج المسلمين من تلك الأوطان واندثار معالم ثقافتهم منها.



(1) قال فى القاموس: وابن عربى محمد بن عبد الله الحاتمى الطائى

اغراض الشعر وانواعه

ان البيئة التى عاش فيهـا العرب من صحراء واسعة «تشملهـا عوامل الجدب - وليس لهم من الطعام فيها الا البـان غنمهم وابلهم وتمر نخيلهم وليس لهم من الجمـال الا تلك الرياح العاتية القاسيـة والليل الاليل والنهـار الأبلج والشمس المشرقـة الوضاحـة والنجوم المتلألئة فى تلك القبة الزرقاء الصافية لا يرون الا طيرا سانحا ووحشا نافرا وامرأة هى كل أمانيهم ومصدر نعيمهم فكانت حياتهم مقسمة بين أوهام وأمانى يثيرهمـا ما اشتملت عليـه جزيرتهم وحياتهم - كان لها تأثيرها.

ولذلك ليس عجبا أن يكون شعرهم صورة ناطقة لهـذه الحياة كقول شاعرهم:

ومـا العيش الا نومـة وتبطـح   وتمر على رأس النخيـل وماء»

فلمـا أشرقت شمس الاسلام وكان الفتح العربى فى الأندلس اواخر القرن الاول من الهجرة وانتقـل العرب من آسيـا الى اوربا ووجدوا فى البلاد التى فتحوها ما افتقرت اليه بلادهم من الالوان الزاهية بجمال الطبيعة والحياة المتنوعة والاجواء المتغيرة والخمائل الجميلة والبحار والجزر والجبال والانهار والحقول المتسعـة والامطار المتصلـة

والحدائق الغناء والرياض الفيحاء «وما انشات هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان» ووجدوا الغنى والثروة وتحولوا من البداوة الى الحضارة واختلطوا بشعوب جديدة وكونوا مزيجا اصبح هيكل الدولة وعقلها ونظامها.

كان من الطبيعى ان يغير ذلك ايضا فى اغراض الشعر ويحدث فيه انقلابا مساويا لذلك الانقلاب الاجتماعى ومسايرا لحياتهم الجديدة ولكن من الغريب الذى يدعو الى التفكير ان الشعر لم يتعد تلك الدائرة التى عرف بها فى الشرق ولم يستطع الشعراء تنويع الاغراض والموضوعات وان كان خيالهم قد سما فى تصور بعض هذه الاغراض.

البحور الشعرية هى هى كما كانت ايام الجاهلية وصدر الاسلام وعصر بنى امية لم تتغير ولم يتحلل منها الأدباء، وبقى الشعر مستعملا فى النوع الوجدانى من الحماسة والهجاء والمدح والرثاء والوصف والفخر والنسيب والاعتذار والحكمة - ويعتبر علماء الأدب ان المدح والهجاء ليست ضروب الشعر أو اقسامه فى ذاته ولكنها انواع لفن واحد من الشعر هو الشعر الغنائى الذى يتحدث عن عواطف النفس وما يحيط بها من مظاهر الطبيعة - وقد نظم الأندلسيون فى هذه الأنواع جميعا. نعم انهم خرجوا عن هذه الموضوعات الى النظم

فى الزهد والتصوف والمسائل العلمية وغيرها على قدر مما يعتبر فى بعض الأحيان خارجاً عن فنون الشعر المعروفة كما حدث تغيير قليل إلى الموشحات والأزجال وضعف فى بعض الأبواب السابقة تبعاً لحياتهم الجديدة وآثارها فى نفوسهم من لطف فى الوصف ورقة وحنان وتخنث فى التشبيب والغزل وضعف فى مثل الحماسة والفخر.

وكان من الواجب المنتظر أن يتعدوا تلك الدائرة القديمة الى الشعر القصصى والشعر التمثيلى لاتمام تلك الحلقة المفقودة فى الشعر العربى والخروج عن تلك الفنون التى اتخذت للهو والمدح والسباب لا للحكمة والارشاد والاعتبار واحياء العزة بذكر الابطال كما فى الشعر القصصى.

ويقول بعض مؤرخى الآداب الأندلسية من الاسبان: ان الأندلسيين تناولوا ما يشبه ذلك فى بعض أشعارهم ويقول انها ضاعت أو فقدت فى محنة المسلمين باحراق كتبهم ويستدل بقصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ظنا أنها من ذلك النوع.

نعم اذا سلمنا أن شيئاً من الشعر القصصى أو التمثيلى وجد فى أشعار الأندلسيين أو وجد فى أشعار الشعراء الغزليين فى الشرق كعمر بن أبى ربيعة وجميل وقيس مما جاء فى كتاب الأمالى الجزء الثاني فانه جاء عرضاً فى قصائدهم ولم يكن فناً جعله الشعراء هدفاً

لهم من تحليل وشرح وذكر وقائع لان الشعر القصصى والشعر التمثيلى المقصود يكون مبنياً على طول القصيدة وتعدد القافية وذكر الوقائع وتحليل الأخلاق ووصف الأبطال وانتقاد العادات ومدح النبل واستلهام الآلهة وعلى الاجمال الهدم والبناء الجديد لتحيا الانسانية حياة كاملة شريفة وعلى ذلك فالقصص الذى ذكر فى كتاب الأمالى أو فى قصيدة ابن عبدون الأندلسى أو فى غيرها ليس من هذا النوع وما رأينا فى المراجع العربية قصيدة لشاعر عربى مبنية على محاورة بين قائلين أو أكثر أو حاكية لمظهر وهيئة يمكن تصويرها أو تمثيلها على المسرح كالتى تناولها الشعراء المحدثون فى الشعر العربى بظهور أميرة الأندلس وكيليوبطرا وعنترة وغيرها كمجنون ليلى التى قال عنها الاستاذ «نفيل بابرير» انها أشهر المسرحيات لأنها تمثل عيشة البدو أدبية أكثر منها حقيقية فقدر لها الخلود لما أودعها أمير الشعراء شوقى من عيون الشعر وروائعه. وقد كتب مثل هذه القصص الاستاذ عبد الله عفيفى وغيره من الشعراء.

☆

☆ ☆

ويرجع السبب فى أن الشعراء الأندلسيين لم يتناولوا الشعر القصصى والتمثيلى الى أمور منها: ان الحياة الثقافية فى اسبانيا إبان الفتح العربى وقبله كانت متدهورة ساقطة تقوم على طلسمات وادعية كهنوتية - كما عرفت - فلم تستطع الثقافة القوطية أن تنقل الى العرب شيئاً عن الآداب اليونانية والرومانية القديمة أو تؤثر هى فيهم بمكوناتها.

ومنها أن الأندلسيين بالغوا فى محاكاة المشارقة - وهؤلاء لم يتصلوا بالشعر اليونانى والرومانى - فانصرفوا الى الافتنان فى الصناعة اللفظية ولم يخلقوا لنا جديداً فى الاغراض والانواع.

ومنها أن هؤلاء الشعراء - وجلهم سلالة أبناء الصحراء - احترموا قديمهم ثقة به واحتفظوا بذكرى بلادهم اجلالا لها وحناناً.

ومنها أن عاطفتهم الاسلامية اتجهت صوب مكة - كذلك المشارقة - وهى مسقط رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومقام ابرهيم وكعبة المسلمين ولان أدبهم كان دينياً يرتبط بالقرآن وهو المثل الاعلى للبلاغة فسيطر عليهم ذلك المدد الروحى المنبعث من الكعبة والقرآن فصار قدسياً لا يصح التصرف فيه أو الخروج عنه وتقيدوا

بالاغراض التى تقيد بها المشارقة ولم يتعدوا حدودها ولعلها أقل ما يعرف الشعر قيمة.

ومنها كما قال الدكتور زكى مبارك «ان عبقرية العرب ليست فى القصص وانما عبقرية العرب فى الغناء والتعبير عن الانفاس الروحية وفى بلاد العرب نشأت الديانات الموسوية والعيسوية والمحمدية وفى بلادالعرب نشأت أحاديث القلب والوجدان وهم بلا جدال أصدق من تحدث عن الارواح والقلوب» وهذا رأى وجيه وما شعراء الأندلس الا سلالة هؤلاء العرب.

ومع أن الأندلسيين نظموا فى الأغراض والفنون التى نظم فيها المشارقة وأخذوا أنفسهم على محاكاتهم فانهم لم يصلوا الى اجادتهم فى الشعر الفلسفى والزهد ولم تعصف شهرة شعرائهم - مع كثرة المجيدين فيهم - بشهرة المتنبى والمعرى والبحترى فى البلاغة وفخامة المعنى ومتانة الأسلوب وترتيب الأفكار ترتيباً منطقياً وقول الشعر بألفاظ تشبه المسائل العلمية مما يرى فى شعر المتنبى استاذ الفلسفة الخلقية والمعرى الذى ملأ لزومياته بذكر الديانات وتحليل

الاخلاق وشرح المذاهب الدينية حتى أصبحت معلمة فلسفية[1] أشبه منها بديوان شعرى. ولم نر فى أشعارهم وخاصة فى عهد بنى أمية وملوك الطوائف الاكثار من ذكر المصطلحات الفلسفية كالجوهر والعرض والطبائع أو التحلى بأسماء أرسطاليس وجالونيس وأبقراط غير أن كتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ذكر بعض أبيات

---

(1) «استمد أبو العلاء فلسفته الطبيعية من فلسفة اليونان فوافقهم فى العناصر وقدمها والزمان والمكان وخلودهما وأنهما غير متناهيين قال فى قدم المادة»

زرد إلى الأصول وكل حى　　　له فى الأربع القدم انتساب

وقال:

آليت لا ينفك جسمى فى أذى　　　حتى يعود الى قديم العنصر

وقال فى قدم الزمان:

نزول كما زال آباؤنا　　　ويبقى الزمان على ما ترى

نهار يمر وليل يكر　　　ونجم يغور ونجم يرى

وقال في المكان:

أما المكان فثابت لا ينطوى　　　لكن زمانك ذاهب لا يثبت

أما المتنبى فقد استطاع أن يحول تجاربه شعراً وحكمة خالدة على مر الزمان وصورة صادقة للحياة وهو القائل:

والأسى قبل فرقة الروح عجز　　　والأسى لا يكون بعد الفراق

وقال:

أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه　　　فما طلبى منها حبيبا ترده

ومثل هذه القضايا العلمية والفلسفية لم توجد في شعر الاندلسيين لبعدهم عن الفلسفة وعدم اشتغالهم بها ولذا فانها لم تؤثر فى أسلوب الشعر ومعانيه وموضوعه في الاندلس كتأثيرها فى الشرق.

لأحد المشتغلين بعلوم الحكمة بعث[1] بها الى عمه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وفيها ذكر بعض أسماء الفلاسفة.

قد يكون تأخر الأندلسيين عن المشارقة فى الاجادة يرجع الى أمور منها: أن المشارقة نشئوا فى أحضان الدولة العربية الفسيحة حيث سلطانهم الممتد شرقاً وغرباً تخضع لهم الدنيا وما فيها فمدى آمال الشعراء لا يحد.

ومنها قرب المشارقة من البادية معهد اللغة الاصلى ومنبعها الفياض ومعينها الذى لا ينضب يلجئون اليها اذا أعوزهم الأمر وكتب الأدب ملأى بهجرة أبناء الخلفاء وخروج الشعراء والرواة الى البادية طلباً للفصحى.

ومنها أن التنافس بالشعر بين الشعراء كان فى الشرق بالغاً غايته وصار حرفة للتكسب بعد أن دفعهم خلفاء الدولة الأموية الى

---

(1) قال صاعد فصد سعيد بن عبد الرحمن فبعث الى عمه أحمد بن محمد بن عبد ربه أن يحضر عنده مؤانساً له فلم يجبه فكتب اليه:

لما عدمت مؤانساً وجليسا ... نادمت بقراطا وجالينوسا
وجعلت كتبهما شفاء تفردى ... وهما الشفاء لكل جرح يوسى

فأجابه ابن عبد ربه:

ألفيت بقراطا وجالينوسا ... لا يأكلان ويرزئان جليسا
فجعلتهم دون الاقارب جنة ... ورضيت منهم صاحبا وأنيسا
فأظن بخلك لا يرى لك تاركا ... حتى تنادم بعدهم ابليسا

ذلك الميدان لأنها قامت على كره من الفريق الأعظم من المسلمين فاحتاجوا الى الشعراء. ثم جاءت الدولة العباسية واينعت النهضة الفكرية والحركة العلمية فزاد الشعر تفنناً والشعراء اجادة.

وقد يكون قصورهم عن العلوم العقلية والبحث فى الحكمة وفروع الفلسفة وتعصب الفقهاء وازدراء العامة لمن يتناولها داعياً الى بعد الشعراء الأندلسيين عن ذكر الفلسفة فى أشعارهم أو ترتيبها ترتيباً منطقياً.

ويرى بعض الأدباء من المعاصرين - أن شهرة شعراء الأندلس لم تتعد حدود جزيرتهم لأن الناقدين والمؤلفين من المشارقة والمغاربة لم يتناولوهم بالنقد والتمحيص كما تناولوا شعراء الشرق ويقول: ان بعض أدباء المغاربة يعتبر أبا الأجرب جعونة ابن الصمة الكلابى كجرير والفرزدق وابن دراج القسطلى كبشار وابن زيدون كالبحترى وابن هانىء الأندلسى كالمتنبى ويعتبر أن ابن خفاجة ليس له نظير فى شعراء الشرق وخاصة فى وصف الرياض والأنهار والسحب والرعد والبرق وغيرها من مناظر الطبيعة والبحث والاستقصاء ومقارنة أشعار الأندلسيين تدل على وجاهة هذا الرأى وقربه من الصواب.

هذا وان فاق المشارقة المغاربة فيما ذكر فان شعراء الأندلس بزوا شعراء الشرق فى كثير من الأشياء.

(منها الوصف)

قال صاحب (المسهب) فى فضائل المغرب: «والأندلسيون أشعر الناس فيما كثره الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والكؤوس لا ينازعهم أحد فى هذا الشأن وابن خفاجة سابقهم فى هذا المضمار الحائز فيه قصب الرهان وأما اذا هب نسيم ودار كأس فى كف ظبى رخيم أو رجع بم وزير وصفق للماء خرير أورقت العشية وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية أو تبسم عن شعاع ثغر نهر أو ترقرق بطل جفن زهر أو خفق بارق أو وصل طيف طارق أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح وبات مع من يهواه كالماء والراح الى أن ودع حين أقبل رائد الصباح أو أزهرت دوحة السماء بزهر كواكبها أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها - فأولئك هم السابقون السابقون الذين لا يجارون ولا يلحقون. وليسوا بالمقصرين فى الوصف اذا تقعقع السلاح وسالت خلجان الصوارم بين قضبان الرماح وبنت الحرب من العجاج سماء وأطلعت شبه النجوم أسنة وأجرت شبه الشفق دماء وبالجملة فانهم فى جميع الأوصاف والتخيلات أئمة. ومن وقف على أشعارهم فى هذا الشأن فضلهم فيه على أصناف **الامة**.[1]

---

(1) يشبه هذا ما كتبه أبو الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى فى مقدمة كتابه «البديع في وصف الربيع» وقد مر بعضها فراجعه.

يتبين من قول المسهب أنهم برعوا فى الوصف ولا سيما وصف مناظر الطبيعة والحوادث الجوية ومظاهر البيئة من الرياض والبساتين والأبنية والتماثيل والقصور والثمار والأزهار والنواعير والنوافير والبرك والأنهار ومجالس الطرب وشروق الشمس وغروبها والبرد والمطر ووصفوا مشاعرهم وأحزانهم وآلامهم وحروبهم وأساطيلهم وحصونهم ووقائعهم.

ولغرامهم بالوصف وتفننهم فيه أحلوه محل النسيب والتشبيب فى القصيدة العربية فى حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة كما سنبين لك فى معانى الشعر وأسلوبه.

ولا يفوتنا أن نشيد بفضل الأندلسيين على اللغة لبراعتهم فى هذا الفن فالوصف فى الشعر العربى يؤدى الى اللغة ثروة لخصبه وتنوع فنونه فهو كالرسم والتصوير يتناول نواحى الكون ويمثل المناظر الطبيعية ويشرح لنا ما دار فى المجالس من لهو أو مجون أو أدب ووعظ وما فيها من جمال ثم يتناول الحروب والطرد والصيد ثم يدخل الى النفس فينقل لنا الشاعر الشعور والاحساس ويعرض خلجات القلوب وصفات الناس وشمائلهم ووجدانهم. ذكر نفح الطيب عن الأندلسيين قال: «فاذا هم ذكروا روضاً سمعت حفيف أغصانه وشممت شميم ريحانه وتناولت جنى ثمره وأبصرت ناظر زهره

وان وصفوا بحراً أروك اضطرابه وركبوا بك عبابه وأسمعوك نجى[1] حيتانه وكشفوا لك عن دره وجمانه، مما يبرهن على قيمة الوصف وما يسديه للغة من ثروة.

ومن الأمور التى فاقوا فيها المشارقة أيضاً رثاء الدول والممالك الزائلة.
فلهم فى البلدان التى سقطت فى يد العدو والأمصار التى طغت عليها النصرانية قصائد مشهورة من أشهرها قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ملوك بطليوس، وهذه القصيدة تشبه قصيدة أبى العلاء المعرى فى رثاء فقيه حنفى وقد نسج على منوالها فى العصر الحديث حافظ ابراهيم فى قصيدته الشهيرة فى وصف زلزال صقلية.

ويمتاز هذا النوع من الرثاء باشتماله على العبرة والموعظة وذكر أهم حوادث التاريخ والنكبات التى أصابت الملوك والبشرية ودمرت الأكوان كما أن فيه سلوى بذكر ما كان فى الحياة

---

(1) قالت حمدة بنت زياد تصف واديا:

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

وقال ابن سفر يصف المد والجزر في نهر أشبيلية:

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزؤا فضم من الحياء إزاره

من مآسى. وقصيدة ابن عبدون طويلة فراجعها فى كتب الأدب إن شئت وأولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وان أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر

فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر

بيد أنه لا يؤخذ من هذا أن الأندلسيين انفردوا برثاء الدول الزائلة فكثير من المشارقة رثى الاسلام والمسلمين وبعض البلدان التى وقعت فى يد الصليبيين فى أواخر سنة 490هـ.-يوافق حكم المرابطين فى الأندلس - ابان طغى الصليب على الهلال واستولى على بيت المقدس وبعض مدن مصر فى مظهر من التوحش والقسوة - والحقيقة أنهم فاقوا غيرهم فى هذا النوع.

ومن الامور التى امتاز بها الأندلسيون عن المشارقة الاستنجاد بملوك الاسلام[1] والاستغاثة بالنبى - صلى الله عليه وسلم - والفزع الى الاتقياء والصالحين وحفز الهمم واستنهاض العزائم لانقاذ البلاد

---

(1) ومن أشهر القصائد في ذلك قصيدة أبى عبد الله ابن الابار التى استنجد بها أبا زكرياء بن حفص صاحب افريقية سنة 635 قال فيها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... ان السبيل الى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

الاسلاميـة الأندلسيـة من طـواغيت الصليب.

وقد امتـاز الأندلسيون ايضـا بالافراط فى المزاح[1] والمجـون والمفاكهات وقد عقد نفح الطيب باباً خاصاً عن ظرفهـم ذكر فيه أمـوراً تضحك الحزيـن وتسلى المهمـوم وتدل على خفـة أرواحهـم وحبهم للهو والدعابة وقد زادوا فى هذا الباب على المشارقة كثيـراً حتى أدخلوا مصطلحات العلوم وأسماء الكتب وقواعد النحـو فى نكتهم وملحهم وكشف الحيـاء عن وجوههـم فذكروا أموراً... فى دعابتهـم وفى نوادرهم، وليس أدل على ذلك مما ذكره المقـرى فى نفـح الطيب عن المحاورة بين نزهون الشاعرة وشاعر أعمى بحضرة أحد العظماء وغير ذلك مما جاء فى هذا البـاب فراجعه ان شئت فى نفح الطيب.

ومن الفنون الشعرية التى فاق فيها الأندلسيون شعراء المشرق المنظومات العلمية فى التاريخ والنحو وقضايا الفنون والتعاريف ومن أشهر ذلك أرجوزة ابن عبد ربه فى التاريخ وتجدها فى العقد الفريد «الجزء الثالث» طبعة مصطفى محمد من صفحة 214 الى صفحة 232

---

(1) ذكرت كتب الادب أن ولادة مرت بالوزير ابن عبدون وأمام داره بركة قذرة فقالت مشيرة اليـه:

أنت الخصيب وهذه مصـر فتـدفقـا فكلاكمـا نهر

وقد ذكر فيها غزوات عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين وأهم ما حدث فى المدة بين سنة 300-322 وأرجوزته فى العروض.

وقد ذكر بعض مؤرخى الآداب أن يحيى الغزال الجيانى نظم تاريخاً للأندلس قبل أن ينظم ابن عبد ربه أرجوزته التاريخية فى حروب عبد الرحمن الناصر ثم حذا كثير من الأندلسيين حذو ابن عبد ربه فى نظم العلوم والقواعد العربية والدينية والعقلية فنظم ابن مالك ألفيته والشاطبى اللامية والرائية فى القراءات ورسم المصحف ولامتلاكهم ناصية الشعر تفننوا فى هذا النوع فخرج الى الغزل والمدح ومن أمثلة ذلك قول ابن فرج فى مصطلح الحديث:

غرامى صحيح والرجا فيك معضل وحزنى ودمعى مطلق ومسلسل
وصبرى عنكم يشهد العقل أنه ضعيف ومتروك وذلى أجمل
ولاحسن الا استماع حديثكم مشافهة يملى على فأنقل

وغير ذلك من الأشعار التى جاءت فى مجموعة المتون.

ولا ريب أن الأندلسيين ليسوا أول من اخترع هذا الفن - وان فاقوا غيرهم فيه - فقد نظم به فى الفقه ابان بن عبد الحميد اللاحقى من شعراء العراق فى صدر القرن الثانى.

✡

✡ ✡

أسلوبه ومعانيه

لقد كان للحياة الجديدة والمرئيات الجميلة والبعد عن قرارة العربية الأولى أثر ظاهر فى معانى الشعر وأخيلته فجنحوا الى السهولة والرقة ونصاعة العبارات ووضوح الأساليب وعذوبة الألفاظ التى تدل على رقة أذواقهم وسهولة طبائعهم ويروقك فى شعرهم اختيار أحسن الألفاظ وقعاً فى النفس وأدعاها الى تصوير الجمال وإيقاظ النفوس وإثارة العواطف ومن النادر أن تجد فى قصائدهم اكتظاظ الألفاظ بالمعانى اكتظاظاً يؤدى الى التعقيد والاخلال بالمعنى كما وقع فى شعر الفرزدق والمتنبى.

ولذا عاب بعض الناقدين ابن خفاجة من شعرائهم - مع براعته - لازدحام معانيه وضيق ألفاظه عن احتمالها قال ابن خلدون: «ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا يعيبون شعر أبى بكر بن خفاجة شاعر شرقى الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد».

أما استعمال البديع فى أشعارهم ووقوع الصناعة اللفظية لهم من التجنيس والقلب وبناء القصيدة على قافيتين - ويعرف بالتشريع - فهو حسن ومقبول فى أشعارهم لأنهم لم يغرقوا فى ذلك إغراق

المشارقة ذكر ابن خلدون فى المقدمة ص 500 فى الفصل الخامس والأربعين فى انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر ان المشارقة هم أصل كل حلية لفظية وتكلف فى السجع اذ قال: «وأكثر من أخذ بهذا الفن - أى التكلف والحلية - وبالغ فيه فى سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد.. » الى آخر الفصل.

وقد ساعدهم جمال بلادهم وحبهم للوصف على البراعة والتفنن فى الأخيلة وامتلأ شعرهم بأوصاف تدعو الى الدهشة والاستغراب وتناسى بعضهم الحقيقة وسبح فى أودية الخيال وأخرج لنا صورة وهمية لا وجود لها وكأنها فى نظره الحق الثابت والأمر الملموس فلا تشبيه ولا استعارة كقول ابن هانىء:

قمن فى مأتم على العشاق ولبسن الحداد فى الأحداق

وبكين الدماء بالعنم الرطـــب المقنى وبالخدود الرقاق

ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق

فأنت ترى أن الشاعر يزعم أن هؤلاء الحسان قمن فى مأتم على من قتلن. قال الأدباء: «من أجل هذا فشا فى كلامهم ذلك الفن البديعى الذى يعد من ثمرات الخيال البعيد وهو حسن التعليل فانه فى كلام الأندلسيين أكثر منه فى كلام غيرهم» واستشهد بقول ابن فرج الجيانى في وسيم عيب بصفرة قال:

قالوا بـه صفرة عابت محاسنـه　　فقلت ما ذاك من عيب به نزلا
عينـاه تطلب فى أوتـار قاتلـه　　فلست تلقاه الا خـائفـاً وجـلا

أما نظم القصيد عندهم فكان جاريا على المألوف فى بلاد الشرق من الابتداء بالغزل والتشبيب بالمرأة لأنها فى نظرهم أنفس مظاهر الجمال حتى عند الرثـاء والفخر ثم التحدث بمـا يجيش فى صدره غير أن بعض الأندلسيين خرج عن هذه القاعدة لحبه للوصف فجعله موضـع النسيب والتشبيب كما مـر بك ثم ياتى بالمعانى والأخيلة ولا يشذ شاعـر من شعرائهـم عن أن يوجد فى قصيدته بعض الأبيات التى تستقـل بمعنـاه.

ويجمل بنا قبل أن ننتهى مـن ذكـر أسلوبه ومعانيـه أن نشير الى تاثير الحضارة فى المعانى التى تناولها الشعر.

فمعانى الفخر والحماسة أصبحت سهلة رقيقـة لا قوة فيها لرقـة الألفاظ وعذوبتها.

كما ضعفت معانى الهجاء وأصبح لا يظهـر فى بعض الأحيان الا بين أفراد قلائل لحزازة أو لحادثة فرديـة وخلت دواوين شعرائهم من تلك الأهاجى التى تتفطر لها السماء كأهاجى الأخطل وجرير والفـرزدق وقد اعتبرت تلك النقائض وثيقـة تاريخيـة لعصرهمـا ولكثير من أيام العرب.

كان فيهم قليلا ان لم يكن معدما فى الاعتقاد والفقه والنحو ولعدم ظهور شيعة على أو آل العباس أو شعوبية - على نحو ما كان فى الشرق - لم يتناول شعراؤهم فى شعرهم المعانى السياسية التى تثير الفتن أو تفتح طريق المناظرة بالشعر كما نرى ذلك فى شعر الكميت بن زيد أو شعر بعض شعراء الشعوبية الذين فضلوا الفرس على العرب [1].

وأعظم أثر لدينا ما رواه نفح الطيب فى رسالة الشقندى فى تفضيل الأندلسيين على المغاربة - وهذه ليست من الشعر - كما أن هناك بعض أبيات متناثرة ومقطوعات فى تفضيل الأندلسيين أو المغاربة بيد أنها لم تصل فى معانيها وقوتها وظهور العصبية المذهبية والدفاع بحرارة قوية عن العقيدة ما وصل إليه شعراء الشرق.

ومن أظرف ما حصل فى ذلك ما رواه لسان الدين بن الخطيب قال : «جرى بين الحسين بن عتيق بن الحسن بن رشيق وبين أبى

---

(1) جاء فى كتاب تاريخ الأدب العربى ج 3 ص 247 عن الشعر السياسى فى الشرق «... ولكنه فى عصر الأمويين اتسعت طرقه ومناحيه فلم يقتصر على مناصرة شيعة بنى هاشم وبنى أمية بل تعداهما الى مناصرة الأحزاب الأخرى من زبيرية وخوارج وغيرهما ومن أشهر الشعراء المناصرين لبنى أمية : الأخطل وجرير والفرزدق ونصيب ومن الزبيرية عبد الله بن قيس الرقيات ثم اضطر أن يكون أمويا ومن شعراء الخوارج عمران بن حطان والطرماح بن حكيم ومن شعراء الشيعة والمتعصبة لمضر الكميت الأسدى ..»

الحكم مالك ابن المرحل من الملاحات والمهاترات أشد ما يجرى بين متناقضين آل به إلى الحكاية الشهيرة وذلك أنه نظم قصيدة منها :

لطلاب سبتة فى النباح مدارك — وأشدها دركا لذلك مالك
شيخ تفانى فى البطالة عمره — وأجال فكيه الكلام الآفك
وألذ شىء عنده فى محفل — لمز لأستار المحافل هاتك
يغشى مخاطرة اللئيم تفكها — ويعاف رؤيته الحليم الناسك
نبذ الوقار لصبية يهجونه — فسباله فرش لهم وأرائك
يبدى لهم سوآته ليسوءهم — بمسالك لا يرتضيها سالك
يابن المرحل لو شهدت مرحلا — وقد انحنى بالوحل منه الحارك
لشغلت عن ذم الأنام بشاغل — وثناك خصم من أبيك مماحك
لاقول المغرور منك بشيبة — بيضاء طى الصحف منها حالك
عار على الملك المعظم أن يرى — فى ذلك الصقع المقدس مالك

وما أشبه ذلك من الشعر الذى تنبو عن بعضه الأسماع قال لسان الدين : وهى طويلة تشتمل من التعريض والتحريض على كل غريب واتخذ لها كنانة خشبية كأوعية الكتب وكتب عليها «رقاص معجل الى مالك بن المرحل» وعمد الى كلب وجعلها فى عنقه وأوجعه ضربا حتى لا ياوى الى أحد ولا يستقر وذهب الكلب وخلفه من الناس أمة وقرىء مكتوب الكنانة واحتمل الى أبى الحكم ونزعت

من عنق الكلب ودفعت اليه فوقف منها على كل فاقرة كفت من طماحه وتحدث الناس بها مدة ولم يغب عنه أنها من حيل ابن رشيق ففوق سهام المراجعة وفى ذلك يقول :

كلاب المزابل آذيننى بأبوالهن على باب دارى
وقد كنت أوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدار

وقد عرفت فيما سبق أنهم لم يشتغلوا بالفلسفة أو يدرسوا المنطق الا قليلا ولذا كان شعرهم فى تركيب معانيه وترصيف ألفاظه وتكوينه بعيدا عن الاقيسة والتصورات العميقة فالمعانى مفردة متفرقة غير مربوطة بسلسلة واحدة ولم يظهر مثل هذا الشعر الذى يكون فيه اللفظ مساويا للمعنى الا فى عصر الموحدين واشتهر به ابن عربى لاشتغاله بعلوم الحكمة.

وكانوا يشيرون فى أشعارهم الى بعض الحكم والأمثال والحقائق ومعانى المصطلحات العلمية وغير ذلك - كما مر بك - للفنون وكونهم لا يرضون من الشاعر الا أن يكون فقيها كاتبا ونحويا بارعا.

أوزانه وقوافيه

ذكرنا لك فى الابواب السابقة أن المتأدبين لم يدرسوا بحور الشعر الستة عشر المعروفة فى الشرق والغرب بعد أن انتقلت بهم الحياة من البداوة الى الحضارة رغبة فى تسهيلها حتى توافق بعض النفوس التى تفيض بالمعانى الشعرية ويمنعها الوزن وحبك القافية عن الافاضة.

وبينا لك أن الأندلسيين تمكنوا من كسر هذه القيود وأن يتعدوا حدودها بمقدار ما عرفت من إبداع الموشح والزجل وكثرة القافية وإحداث التشطير والتخميس والتثمين وان كانت على طريقة الأوزان العربية ويرجع ذلك لعدة أمور منها:

أن البيئة حولت الأندلسيين من بداوة الى حضارة وامتازوا بصفاء[1] الأمزجة وخفة الارواح وارتقى الأدب عندهم وشاع حتى بين النساء والعامة والخاصة وغلب الشعر كما قيل على أصقاع بعينها مثل وادى شلب ووادى آش حتى قل من أهل شلب من لا يقول

---

(1) قال العلامة H. A. R. G. I. B. فى كتابه الادب تعريب الاستاذ حمزة «كان للعبقرية الاسبانية أثر كبير فى تطور الاوزان الشعرية الغنائية الا أن هذه التحسينات الفنية التى أدخلتها قوانين الاوزان الشعرية العربية على ذلك النوع الادبى من الاغانى المعروف بالموشحات عاد القوم فادخلوها على أغانيهم الشعبية التى استخدمت فيها العامية العربية والجليقية وعرفت اذ ذاك باسم الزجل -

شعراً ولا يعانى أدباً رائعاً ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحته عليه وأى معنى طلبته.

ومنها أن الأندلسيين غرموا بالغناء وافتنوا فيه جاء فى كتاب المغرب لابن عذارى: «ان عبد الله المتطبب الأندلسى فى النصف الاول من المائة الخامسة كانت عنده جارية قال عنها ابن حيان: لم ير فى زمنها أخف منها روحاً ولا أبرع حركة ولا ألين أعطافاً ولا أطيب صوتاً ولا أحسن غناء» وكان للأمير هذيل كثير من الجوارى الحسان المشهورات بالتجريد وكانت ستائره أحسن ستائر الأندلس، وذكر أن مدينة أبدة من مدن الأندلس كثرت فيها الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة.

وقد وجد الأندلسيون أن أوزان البحور الشعرية الستة عشر فى كثير من الأحيان يصعب التلحين بها والايقاع على قوانينها وان المغنى يعانى صعاباً كثيرة فى جعل الالحان متناسبة ومتناسقة مع هذه الأوزان المعروفة ووجدوا أن اختراع الأوزان الموافقة للنغم الموسيقى أسهل عليهم من اختراع ألحان موسيقية تلائم الوزن الشعرى فراعوا اللحن وصارت الموسيقى أساس الاوزان سواء أوافقت بحور الشعر أم لم توافقها وبذا حادوا عن تلك القوانين وخرجوا عن الضوابط الثابتة وقد تساهلوا فيها فى أواخر أيامهم فكثر امتزاجها بالالفاظ العامية ونشأت الازجال.

الموشحـات

يجمل بنا قبل أن نذكر تاريخ الموشحات والأدوار التى تقلبت فيها والأغراض التى قيلت من أجلها أن نذكر لك تعريفها.

فالموشحات هى : «كلام مؤلف نظمـا على أوزان مخصوصة، ويتألف من أجزاء منهـا ما هو متحد فى وزنه وقافيته وعدد فقراته ويسمى الواحد منها قفلا، ومنها ما هو متحد غالبا فى وزنه وعـدد فقراته مع وجوب اختلاف قوافيه، ويسمى الواحـد من هـذه بيتا. فالموشح مركب من جزأين : الاقفال والابيات. ومن الموشحات التام، والناقص.

فالموشح التام هو المبدوء بقفل والمختوم بقفل.

والموشح الناقص هو المبدوء ببيت المختوم بقفل.

وطرائق تركيب الأقفال والأبيات شتى لا تكاد تدخل تحت حصر وسترى ذلك فيما يعرض عليك.

أما أغراض الموشحات فهى أغراض الشعر العربى من المـدح والنسيب والوصف وغيرها.

وأول من اخترعها كما جاء فى مقدمة ابن خلدون ص521 مقدم ابن معافر قال : «وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم ابن معافر

الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد، ولكن لم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع أبا بكر ابن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدرتم شمس ضحا ☆ غصن نقامسك شم
ما أتم ما أوضحا ☆ ما أورقا ما أنم
لاجرم من لمحا ☆ قد عشقا قد حرم

فأنت ترى أنه شبه بالبدر والشمس والغصن والمسك ثم ذكر ازاء كل مشبه به ما يناسبه وهذا غاية البلاغة ومنتهى الاجادة.

ولم يكن فى ملوك الطوائف من يبز عبادة فى موشحاته فظهر فى دولة بنى ذى النون لذلك العهد ابن رافع شاعر المامون.

ثم جاءت دولة المرابطين والموحدين فظهرت حلبة أجادت الموشحات وأظهرت البدائع وكثر عددهم، منهم الأعمى الطليطلى ويحيى ابن بقى وأبو بكر الأبيض وأبو بكر ابن باجة صاحب التلاحين المعروفة. وظهر فى صدر دولة الموحدين على بن أبى الفضل ابن شرف الدين وبهرودس وأبو اسحاق الرويني وسابق هذه الحلبة

غير مدافع أبو بكر ابن زهر وقد شرقت موشحاته وغربت ثم اشتهر بعد هؤلاء ابن ميمون.

أما فى غرناطة لذلك العهد فقد ازدهرت الموشحات بظهور المهر بن الفرس وأبى الحسن سهل بن مالك.

وفى مرسية نبغ ابن جرمون.

أما اشبيلية فظهر فيها أبو الحسن بن الفضل واشتهر بعده ابن سهل الذى يقول فى موشحته:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى ... قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس (1)

✡

✡ ✡

يابدوراً أشرقت يوم النوى ... غرراً تسلك بى نهج الغرر
مالنفسى فى الهوى ذنب سوى ... منكم الحسن ومن عينى النظر (2)
أجتنى اللذات مكلوم الجوى ... والتذاذى من حبيبى بالفكر

✡

✡ ✡

كلما أشكوه وجدى بسما ... كالربا بالعارض المنبجس
اذ يقيم القصر فيها مأتما ... وهى من بهجتها فى عرس (3)

✡

✡ ✡

---

(1) قفل (2) بيت (3) أعاد القفل

أيها السائل عن جرمي لديه ... لي جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه ... مشرقاً للشمس فيها مغرب
ذهب الدمع بأشواقي اليه ... وله خد بلحظي مذهب

وقد عارضها ونسج على منواله الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي المعروف بلسان الدين بن الخطيب:

جادك الغيث اذا الغيث همى ... يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك الا حلما ... في الكرى أو خلسة المختلس

✡
✡ ✡

اذ يقود الدهر أشتات المنى ... تنقل الخطو على ما يرسم
زمراً بين فرادى وثنى ... مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى ... فثغور الزهر منه تبسم

✡
✡ ✡

وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلما ... يزدهي منه بأبهى ملبس

✡
✡ ✡

في ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر

حين لذ الأنس شيئا أو كما   هجم الصبح هجوم الحرس

غارت الشهب بنا أو ربما   أثرت فينا عيون النرجس

قال ابن خلدون : وقد أكثر الأندلسيون من الموشحات واستظرفها الناس جملة العامة والسامة ولسهولة تناولها وقرب مأخذها ولطف طرائقها أخذها عنهم المشارقة غير أن التكلف ظاهر على ما عنوه من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم فى ذلك موشحة ابن سيناء الملك المصرى التى اشتهرت شرقا وغربا :

ياحبيبى ارفع حجاب النور   عن العذار

تنظر المسك على الكافور   فى جلنار

كللى ياسحب تيجان الربا بالحلى   واجعلى سوارها منعطف الجدول

ومن أحسن الموشحات أيضا التى وقعت للمشارقة قول ابن نباتة المصرى :

الى بكأسك الأشهى اليا   ولا تبخل بعسجدها عليا

معتقة تدار على الندامى

كأن على ترائبها نظاما

من الراح التى محت الظلاما

الأزجال

الزجل مأخوذ من الزجل بمعنى الجلبة والتطريب ورفع الصوت ويقطعون الزجل جملة أدوار ومجموعها فى غرض واحد يسمى حملا تشبيها بحمل الدابة اذ كانت شطوره الرباعية غالبا منقسمة الى قسمين كل قسم منها يكون كأحد جزأى حمل الدابة.

ويعتبر الزجل من التوشيح الا انه لا يكون الا عاميا وكما مربك فى مقدمتنا يعتبر الاعراب فيه من عيوبه وأول من استعمله الأندلسيون بعد أن شاع التوشيح فى أهل الأندلس جميعا وأخذبه الجمهور وراج استعماله كثيرا فى عهد دول المغاربة من المرابطين والموحدين

ذكر ابن خلدون فى مقدمته ص 527 أن أول من أبدع فى هذه الطريقة وهذب أصولها وأكثر من أنواعها أبو بكر ابن قزمان القرطبى المتوفى سنة 160 من شعراء دولة المرابطين وان كانت قيلت قبله بالأندلس ولكن لم يظهر حلاها ولا انسبكت معانيها الا فى زمانه وهو أعلم الزجالين، وذكر ابن سعيد أن أزجاله كانت مروية ومشتهرة ببغداد أكثر من اشتهارها بحواضر المغرب.

ومن أحسن ما قاله من الأزجال قوله يصف عريشا كان جالسا

تحته مع بعض أصحابه وأمامه تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة :

وعريش قد قام على دكان بحال رواق

وأسد قد ابتلع ثعبان في غلظ ساق

وفتح فمه بحال انسان فيه الفواق

وانطلق يجرى على الصفاح ولقى الصياح

وممن اشتهر بالازجال فى عصره أبو عمرو الأشبيلى وأبو الحسن المقرى الدانى وأبو بكر ابن مرتين واشتهر بشرق الأندلس على عصر هؤلاء بقول الأزجال مخلف الأسود.

ثم جاءت بعد هؤلاء حلبة نسجت على منوالهم كان سابقها عبد الله ابن الحاج المعروف بمدغليس وقد وقعت له العجائب فى هذه الطريقة قال :

ورداد الودق ينزل وشعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب

والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب

وتريد تجى الينا ثم تستحيى وتهرب

واشتهر مدغليس بالصناعة اللفظية فشبه بأبى تمام فى الشعر واعتبر ابن قزمان لاشتهاره بالمعنى فى الازجال، بمنزلة المتنبى فى الشعر.

ونبغ فى الازجال أيضاً ابن حجر الأشبيلى الذى فضل على الزجالين بزجله فى فتح ميورقة ثم جاء بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الأدب فى عصره ثم محمدبن عبدالعظيم من أهل وادى آش.

ويذكر ابن خلدون أن الوزير أبا عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية لعصره قال الأزجال واشتهر بزجله على طريقة الصوفية.

ويظهر أن الأزجال على عصر ابن خلدون شملت الخاصة والعامة اذ قال: «وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هى فى العامة بالأندلس بمنزلة الشعر وفيها النظم حتى إنهم لينظمون بها فى سائر البحور الخمسة عشر ولكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلى.

وقد اشتهرت أوزان الزجل حتى إن أهله ليقولون صاحب ألف وزن ليس بزجال وذلك يدل على كثرة أوزانه وفنونه.

ثم انتقل الزجل الى الشرق فأجادوه زمن المماليك وبرعوا فيه وخاصة فيما يسمى بالمواليا والقوما وهى نوع من الزجل استعمل لايقاظ الناس للسحور فى الشرق فى شهر رمضان وكان وكان وهى نوع من الزجل أيضاً.

وقد انتشرت الأزجال فى جميع البلاد العربية وعرف بعضها باسم أغانى غرناطة والله أعلم.

نفحة من الشعر الاندلسى

1 ـ أحمد بن عبد ربه الأندلسى [1]

قال فى وصف الربيع :

وروضة عقدت أيدى الربيع بها ... نورا بنور وتزويجاً بتزويج

بملقح من سواريها [2] وملقحةٍ ... وناتج من غواديها [3] ومنتوج

توشحت بملاة غير ملحمةٍ ... من نورها ورداء غير منسوج

فألبست حلل الموشى زهرتها ... وجللتها بأنماط الديابيج

وقال أيضا فى وصف الربيع :

باكر الروض فى رياض السرور ... بين نظم الربيع والمنثور

فى رياض من البنفسج يحكى ... أثر العض فى بياض الصدور

وترى السوسن المنعم يحكى ... ذهبا ثابتاً على كافور

وقال يصف حماما :

ونائح فى غصون الدوح أرقنى ... وما عنيت بشىء ظل يعنيه

---

(1) هو الأديب الكاتب الشاعر الوشاح المؤلف احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد الذى يعد من اركان الأدب العربى توفى سنة 328هـ.

(2) سواريها ـ سحائبها الآتية ليلا من السرى وهو سير الليل.

(3) غواديها ـ سحائبها الآتية في الغداة.

مطوق بعقود مـــا تزايله ... حتى تزايله إحدى تراقيه[1]

قد بات يبكي بشجو ما دريت به ... وبتُّ أبكي بشجو ليس يدريه

وقال في المدح :

كريم على العلات جزل عطاؤه ... منيل وإن لم يعتمد لنوال

وما الجود من يعطي إذا ما سألته ... ولكن من يعطي بغير سؤال

وقال يصف سيفا :

وذي شطب تقضي المنايا بحكمه ... وليس لما تقضي المنية دافع[2]

فرند اذا ما اعتن للعين راكد ... وبرق اذا ما اهتز بالكف لامع[3]

يسلل أرواح الكماة انسلاله ... ويرتاع منه الموت والموت رائع

اذا ما التقت أمثاله في وقيعة ... هنالك ظن النفس بالنفس واقع[4]

وقال ايضا :

بكل ماثور على متنــــه ... مثل مدب النمل في القاع[5]

يرتد طرف العين عن حده ... عن كوكب للموت لماع

---

(1) يريد بالعقود ما يرى من الالوان في عنقه، وبالتراقي ما يرسله من التغاريد الخارجة من ترقوته وهي الحلق

(2) الشطب : الحزوز في جانبي السيف طولا

(3) اعتن : ظهر وبدا

(4) أي ما تظنه النفس من الهلاك واقع لا محالة

(5) أي يلوح ويتراءى لمن ينظر اليه امثال مداب النمل من انعكاس الضوء وانكساره على صفحته، وذلك يبين في السلاح المجلو من الفولاذ

وقال فى الغزل :

يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا [1]

واذا نظرت الى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا

يامن تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا؟

وقال فى موقف الوداع :

ودعتنى بزورة واعتناق ثم نادت متى يكون التلاقى !

وبدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق

ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق

ان يوم الفراق أفظع يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق !

وقال فى العظة والعبرة :

ألا انما الدنيا غضارة أيكة [2] اذا اخضر منها جانب جف جانب

هى الدار، ما الآمال الا فجائع عليها ولا اللذات الا مصائب

فكم سخنت بالامس عين قريرة وقرت عيون دمعها اليوم ساكب [3]

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة على ذاهب منها فانك ذاهب

---

(1) يقصد أنه أبيض اللون كالدر ولكن الحياء يصبغ وجهه بالحمرة فيستحيل كالعقيق.

(2) الايكة - الشجرة الملتفة الأغصان، وغضارتها - اخضرارها وخصبها

(3) سخونة ماء العين كناية عن حزنها كما أن برودة مائها دليل على فرحها

2 - ابن هانىء الاندلسى [1]

قال يصف الورد والياسمين والنرجس

وثلاثة لم تجتمع فى مجلس ... إلا لمثلك والأديب أريب

الورد فى شمّامةٍ من فضة ... والياسمين وكل ذاك عجيب

والنرجس الغض الذكى ولونه ... لون المحب اذا جفاه حبيب

فاحمرَّ ذا وابيض ذا واصفر ذا ... فبدت دلائل كلهن غريب

فكأن هذا عاشق وكأن ذا ... ك معشق وكأن ذاك رقيب

وقال في نور الرمان :

وبنت أيك كالشباب النضر ... كأنها بين الغصون الخضر

جنان [2] باز أو جنان صقر ... قد خلفته لقوة [3] بوكر

كأنما مجت دما من نحر ... أو سقيت بجدول من خمر

لو نبتت فى تربة من جمر ... لوكف عنها الدهر صرف الدهر

جاءت بمثل النهد فوق الصدر ... تفتر عن مثل اللثاث الحمر

فى مثل طعم الوصل بعد الهجر

---

(1) هو أبو القاسم محمد بن هانىء الاندلسى الأزدى، ولد باشبيلية بالأندلس، ونشأ بها فقال الشعر وفاق كل ادباء المغرب في عصره ولازم وهو شاب أمير أشبيلية فمدحه بمدائح تغالى فيها، حتى اتهموه بالكفر، فخرج الى عدوة المغرب، وهناك الدولة الفاطمية مستولية عليه، فاتصل بالمعز ومدحه وأعجب به، ولما فتح القائد جوهر مصر وبنى القاهرة انتقل اليها المعز، وبعد مدة لحق به شاعرنا، فمات فى الطريق ولم يبلغ الاربعين سنة 362هـ

(2) الجنان : القلب (3) اللقوة بالكسر: أنثى العقاب

وقال من قصيدة يمدح بها المعز لدين الله ويصف أسطوله، وكان يومئذ أقوى أسطول فى البحر الابيض المتوسط:

أما والجوارى المنشآت التى سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما ترجى القباب على المها ... ولكن من ضمت عليه أسود (1)
ولله - مما لا يرون - كتائب ... مسومة تحدو بها وجنود (2)
أطاع لها أن الملائك خلفها ... كما وقفت خلف الصفوف ردود (3)
وأن الرياح الذاريات كتائب ... وأن النجوم الطالعات سعود
وما راع ملك الروم الا اطلاعها ... تنشر أعلام لهـا وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره ... له بارقات جمة ورعود (4)
مواخر فى طامى العباب كأنها ... لعزمك بأس أو لكفك جود
أنافت بها أعلامها، وسما لها ... بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى شاهق، وهو كوكب ... وليس من الصفاح وهو صلود
من الراسيات الشم لولا انتقالها ... فمنها قنان شمخ وريود (5)

(1) أى على الحسان اللائى يشبهن المها.

(2) ولله كتائب مسومة: أى من الملائكة تحدوها.

(3) اطاع لها: اى دان لها وتهيأ وانقاد، وان الملائكة وما عطف عليه فاعل اطاع والردود جمع رد بالكسر وهو ما يعتمد عليه ويرجع اليه

(4) الصبير: السحابة فوق اخرى، او السحاب المتراكم، يريد بها دخان مقذوفاتها ونيرانها وأصواتها.

(5) الريود: جمع ريد وهو القطعة من الجبل، والقنان جمع قنة

من الطير الا أنهن جـوارح فليس لهـا الا النفوس مصيد

من القادحات النار تضرم للصلى فليس لهـا يوم اللقـاء خمود

إذا زفرت غيظا ترامت بمـارج كما شب من نار الجحيم وقود

فأفواههـن الحاميـات صواعق وأنفاسهن الزافرات حديـد

يشب لآل الجـاثليق سعيرهـا وما هى من آل الطريد بعيد

لها شعل فوق الغمار كأنها دمـاء تلقتهـا مـلاحف سود

تعانق موج البحر حتى كأنه سليط لها فيه الذبـال عتيـد

ترى الماء فيهـا، وهو قان عبابه كما باشرت ردع الخلوق جلود (1)

فليس لهـا الا الرياح أعنـة وليس لها الا الحبـاب كديد (2)

وغير المذاكى نجرهـا غير أنها مسومة تحت الفـوارس قود (3)

ترى كل قوداء التليل اذا انثنت سوالـف غيـد بالمهـا وقدود (4)

---

(1) الردع: الزعفران او اثر الطيب فى الجسد، والخلوق: ضرب من الطيب.

(2) الحباب: يراد به هنا الموج، والـكـديد: الارض الصلبة.

(3) المذاكى: الخيل، والنجر والنجار: واحد وهو الاصـل، والقود جمع اقود او قوداء وهو الذليل المنقاد، اى تنسب لغير الخيل مع ان ركابها فرسان

(4) قوداء التليـل: طويلـة العنـق، اى اذا انثنت شعور سوالف الغيد الحسان الشبيهات بالمها على اعناقهن، او تمايلت قدودهن كانت السفينة من هذه السفن تشبهها بانثناء عنقها على صدرها، وكانوا يجعلون فى مقدم السفينة صورة رأس ثور او كبش او نعامة

رحيبة مد الباع وهى نضيحة ... بغير شوى، عذراء وهى ولود [1]
تكبرن عن نقع يثار كأنها ... موال، وجرد الصافنات عبيد
لها من شفوف العبقرى ملابس ... مفوفة فيها النضار جسيد [2]
كما اشتملت فوق الارائك خرد ... او التفعت فوق المنابر صيد [3]
ليوث تكف الموج، وهو غطامط ... وتدرأ بأس اليم، وهو شديد [4]
فمنه دروع فوقها وجواشن ... ومنه خفاتين لها وبرود
ألا فى سبيل الله تبذل كنه ما ... تضن به الأنواء وهى جمود
فلا غرو ان أعززت دين محمد ... فأنت له دون الملوك عقيد

وقال من قصيدة يمدح بها القائد جوهرا ويذكر توديعه عند خروجه من القير وان الى مصر ويصف الجيش وخروجه للتشييع، وكان الزحام قد أفاته مقابلة القائد جوهر حتى لحقه ليلا :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

---

(1) يريد بالباع المجاديف، فهى تمد باعها، وليس لها شوى اى اطراف، وقوله وهى ولود اى انه يتبعها او يكون لها زوارق صغار

(2) اى لها من النقوش الجميلة الالوان ما يشبه شفوف الثياب العبقرية المفوفة اى المخططة بالبياض المذهبة

(3) اى إنها تشتمل بهذه النقوش كما تشتمل الجوارى الخرد بالثياب، وهى جالسات على الارائك، او يلتفع الخطباء الصيد وهم فوق المنابر

(4) بحر غطامط وموج غطامط : عظيم هائج

فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع ولم أدر إذ شيعت كيف أودع

وكيف أخوض الجيش والجيش لجة وإنى بمن قاد الجيوش لمولع

وأين؟ وما لى بين ذا الجمع مسلك، ولا لجوادى فى البسيطة موضع

ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن، ولا بات يهجع

نصيحته الملك سدت مذاهبى فما بين قيد الرمح والرمح إصبع

فقد ضرعت حتى الرواسى لما رأت فكيف قلوب الإنس؟ والانس أضرع

فلا عسكر من قبل عسكر جوهر تخب المطايا فيه عشرا، وتوضع (1)

تسير الجبال الجامدات لسيره وتسجد من أدنى الحفيف وتركع

إذا حل فى أرض بناها مدائنا وإن سار عن أرض ثوت وهى بلقع (2)

سموت له بعد الرحيل، وفاتنى فأقسمت أن لا لا يلائم مضجع

فلما تداركت السرادق فى الدجى عشوت اليه، والمشاعل ترفع

فبت، وبات الجيش جما سميره يؤرقنى، والجن فى البيد هجع

فتخرق جيب المزن والمزن دائح وتوقد موج اليم، واليم أصقع (3)

(1) الخبب والايضاع: نوعان من السير، اى ان المطايا تسير فى امتداده عشر ليال، مبالغة فى طوله

(2) اذا حل أى جوهر، او نفس الجيش يحتاج الى بناء مدينة، وكذلك كانت القاهرة فى أول بنائها معقلا للعساكر

(3) فتخرق أى المشاعل المتقدمة، أى ضوء المشاعل يخترق السحاب الدائح أى المتسع العظيم، ويمتد الى البحر فيجعله كأنه متقد مع أن البحر بارد اصقع، أى كأنه مغطى بالصقيع

وهمهم رعد آخر الليل قاصف ... ولاح مع الفجر البوارق تلمع

وأوحت الينا الوحش: ما الله صانع ... بنا وبكم من هول ما نتسمَّع ؟

ولم تعلم الطير الحوائم فوقنا ... الى أين تستذرى ولا أين تفزع (1)

الى أن تبدى سيف دولة هاشم ... على وجهه نور من الله يسطع

ومن قصيدة يمدح بها يحيى بن علي:

فتكات طرفك، أم سيوف أبيك ... وكئوس خمر، أم مراشف فيك

أجلاد مرهفة وفتك محاجر؟ ... ما أنت راحمة ولا أهلوك !

يابنت ذي البرد الطويل نجاده ... أكذا يجوز الحكم في ناديك؟ (2)

قد كان يدعوني خيالك طارقاً ... حتى دعاني بالقنا داعيك

عيناي أم مغناك موعدنا؟ وفي ... وادي الكرى ألقاك أم واديك؟

منعوك من سنة الكرى، وسروا، فلو ... عثروا بطيف طارق ظنوك

ودعوك نشوى، ما سقوك مدامة، ... لما تمايل عطفك اتهموك

حسبوا التكحل في جفونك حلية ... تالله ما بأكفهم كحلوك !

وجلوك لي إذ نحن غصنا بانة ... حتى اذا احتفل الهوى حجبوك !

ولوى مقبلك اللثام، وما دروا ... أن قد لثمت به، وقبل فوك

فضعي القناع فقبل خدك حمرت ... رايات يحيى بالدم المسفوك

---

(1) تستذري : تطلب ذرا تلتجىء اليه أي كنفا

(2) يريد: أنها بدوية أبوها يلبس البرد

وقال يرثى والدة يحيى وجعفر ابنى على:

إنا، وفى آمال أنفسنا طول، وفى أعمارنا قصر

لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر!

مما دهانا أن حاضرنا أجفاننا، والغائب الفكر

وإذا تدبرنا جوارحنا فأكلهن العين والنظر

لو كان للألباب ممتحن ما عد منها السمع والبصر [1]

أى الحياة ألذ عيشتها من بعد علمى أننا بشر

خرست لعمر الله ألسننا لما تكلم فوقنا القدر

ومنها:

وإذا صحبت العيش أوله صفوا فهين بعده الكدر

وإذا انتهيت إلى مدى أمل دركا فيوم واحد عمر

ولخير عيش أنت لابسه عيش جنى ثمراته الكبر

ولكل حلبة [2] سابق أمد ولكل نهلة وارد صدر [3]

وحدود تعمير المعمر أن يسمو صعودا ثم ينحدر

والسيف يبلى وهو صاعقة وتنال منه الهام والقصر

والمرء كالظل المديد ضحى والفىء يحسره فينحسر

---

(1) أى ما عد من الألباب: السمع والبصر، لأن السمع يسمع المواعظ فلا يتعظ، والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(2) الحلبة: خيل السباق (3) يريد: أن من ورد الماء وشرب منه لا بد راجع

وقال فى وصف الخيل:

وصواهل، لا الهضب يوم مغارها

هضب، ولا البيد الحزون حزون(1)

عرفت بساعة سبقها، لا أنها	علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق عنها أنها	مرت بجانحتيه وهى ظنون

وقال يصف أكولا:

ياليت شعرى، اذا أومى الى فمه	أحلقه لهوات أم ميادين ؟
كأنها - وخبيث الزاد يضرمها -	جهنم، قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنته	كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختزن	مما أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم	أين الخناجر أم أين السكاكين
كأنما الحمل المشوى فى يده	ذو النون فى الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها	كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة	كأنما اختطفتهن الشواهين

(1) يقول: يستوى عندها المكان السهل والمكان الصعب فالهضاب والفلوات والجبال الوعرة تجتازها بسهولة يوم إغارتها.

3 - ابن دراج القسطلي (1)

قال في وصف الورد ويمدح المظفر بن أبي عامر :

ضحك الزمان لنا فهاك وهاته ... أو ما رأيت الورد في شجراته

قد جاء بالتاريخ من أغصانه ... وبخجلة المعشوق من وجناته

وكساه مولانا غلائل سيفه (2) ... يوماً يسربله دماء عداته

من بعد ما نفح الحيا (3) من روحه ... فيه وعرف المسك من نفحاته

إن كان أبدع واصف في وصفه ... فلقد تقاصر عن بديع صفاته

كمديح سيف الدولة الأعلى الذي ... أعيا فأغيا (4) في مدى غاياته

ملك ينم الجود في لحظاته ... واليمن والايمان في عزماته

وحياته ان كان أبقى حاجة ... لمن ارتجاه غير طول حياته

وقال في وصف الخيرى النمام ويمدح المظفر بن أبي عامر أيضا :

غدا غير مسعدنا ثم راحا ... يساعدنا طرباً وارتياحاً

---

(1) هو أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي المتوفى سنة 421 من الهجرة وكان بالاندلس كالمتنبي بالمشرق قال عنه ابن بسام في الذخيرة «كان أبو عمر القسطلي في وقته لسان الجزيرة» وقال عنه أبو حيان «أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محاسن أهل الاندلس أجمعين» نزل في آخر حياته بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقسطة ولم يزل عنده وعند ابنه من بعده.

(2) غلائل السيف: بطائن تلبس تحته.

(3) الحيا: المطر. (4) اغيا بلغ الغاية.

وخير فاختار شرب الغبوق ولج فليس يرى الاصطباحا(1)
فان آنس الصبح نام وشحّ وان آنس الليل نم وفاحا
كما خير الله عبد المليك فاختار في راحتيه السماحا
وفي صهوات الخيول الرجال ومن أدوات الرجال السلاحا
فعم القريب ندىً والبعيد وروى السيوف دماً والرماحا

وقال يصف البهار (البهار هو النرجس):

دعيت فأصغ لراعى الطرب وطاب لك الدهر فاشرب وطب
وهذا بشير الربيع الجديد يبشرنا أنه قد قرب
بهار يروق بمسك ذكى وصنع بديع وخلق عجب
غصون الزمرذ(2) قد أورقت لنا فضة نورت بالذهب
اذا جمعت في حبال الحديد وقامت أمامك مثل اللعب
فمن حقها أن ترى الشاربين وقد نفقت سوقهم بالنخب
وأن يسألوا الله طول البقاء لعبد المليك مليك العرب
فلولا مجالسه لم ترق ولولا شمائله لم تطب

---

(1) إن من صفات هذا الزهر ألا يزهر ويفوح إلا في المساء، فاذا كان الصباح ينكمش ولا يفوح. وكنى عن هذا المعنى بالغبوق والاصطباح، فالغبوق: الشراب والنشاط في المساء، كما أن الاصطباح الشراب والنشاط في الصباح.

(2) الزمرد بالدال المهملة وبالذال المعجمة: حجر كريم شفاف شديد الخضرة.

وقال فى لوعة الشوق :

وحشية اللفظ هل يودى قتيلكمو   دمى مضاع وجانى ذاك عيناك
إنى أراك بقتل النفس حاذقة   قولى فديتك من بالقتل أوصاك
مالى وللبرق أستسقيه من ظمأ   هيهات لا رى الا من ثناياك
لولا الضلوع لظل القلب نحوكمو   ضعى بعيشك فوق القلب يمناك
أصليتنى لوعة الهجران ظالمة   رحماك من لوعة الهجران رحماك

وقال :

لك الله بالنصر العزيز كفيل   أجد مقام أم أجد رحيل
هو الفتح أما يومه فمعجل   اليك وأما صنعه فجزيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل   بهن عمايات الضلال تزول
سيوف تنير الحق أنى انتضيتها[1]   وخيل يجول النصر حيث تجول
ألا فى سبيل الله غزوك من غوى   وضل به فى الناكثين[2] سبيل
لئن صدئت ألباب قوم بمكرهم   فسيف الهدى فى راحتيك صقيل
وان يحى فيهم مكر (جالوت) جدهم
فأحجار (داود) لديك مثول[3]

---

(1) انتضى السيف: سله من غمده.

(2) الناكثين: الناقضين للعهود.

(3) يشير الى الآية: «وقتل داود جالوت».

خفيف على ظهر الجواد اذا عدا ... ولكن على صدر الكمى[1] ثقيل

وجرداء[2] لم تبخل يداها بغاية ... ولا كرها نحو الطعان بخيل

لها من خوا فى لقوة الجو أربع ... وكشحان من ظبى الفلا وتليل[3]

وبيض[4] تركن الشوك فى كل منتأى ... فلولاً وما أزرى بهن فلول

تمور دماء الكفر فى شفراتها ... ويرجع عنها الطرف وهو كليل

وأسمر[5] ظمآن الكعوب كأنما ... بهن الى شرب الدماء غليل

اذا ما هوى للطعن أيقنت أنه ... بصرف الردى نحو النفوس رسول

وقد أجاد وصف رحلته وصفاً يدل على براعته اذ يقول:

ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى ... على ورقراق السراب يمور (6)

أسلط حر الهاجرات اذا سطا ... على حر وجهى والأصيل هجير[7]

---

(1) الكمى: لابس السلاح الشجاع.

(2) الجرداء من الخيل: السباقة الخفيفة.

(3) خوافي لقوة: أجنحة أنثى العقاب. والكشحان: مفرده كشح وهو ما بين السرة ووسط الظهر. والتليل: العنق.

(4) يقصد السيوف.

(5) يقصد الرماح.

(6) يمور: يموج ويضطرب.

(7) حر الهاجرة: شدة الحر نصف النهار. وحر الوجه بالضم: ما بدا من وجنتيه. والهجير والهاجرة بمعنى واحد.

وأستنشق النكباء وهى لوافح ... وأستمطىء الرمضاء وهى تفور (1)

والموت فى عين الجبان تلون ... والذعر فى سمع الجرىء صفير

ولو شاهدتني والسرى جل عزمتى ... وجرسى لجنان الفلاة سمير (2)

وأعتسف المومأة فى غسق الدجى ... وللأسد فى غيل الغياض زئير (3)

أمير على غول التنائف ماله ... اذا ريع الا المشرفى وزير (4)

وقد خيلت طرق المجرة أنها ... على مفرق الليل البهيم قتير (5)

ودارت نجوم القطب حتى كأنها ... كؤوس طلى والى بهن مدير

لقد أيقنت أن المنى طوع همتى ... وانى بعطف العامرى جدير

وقال رائيته المشهورة فى مدح المنصور بن أبى عامر معارضا رائية أبى نواس فى مدح الخصيب قال :

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى ... وان بيوت العاجزين قبور (6)

وان خطيرات المهالك ضُمَّن ... لراكبها ان الجزاء خطير

---

(1) النكباء: الريح المنحرفة عن مهاب الرياح وهى شديدة الهبوب. والرمضاء: الارض الحامية من شدة الحر. استمطئى أتخذها مطية كالدابة.

(2) السرى: سير الليل. والجرس: الصوت. وجنان الفلاة: ظلام الصحراء

(3) المومأة: الفلاة. وغيل الغياض: الأمكنة الملتفة الاشجار.

(4) التنائف: جمع التنوفة وهى البرية حيث لاماء ولاشجر. والمشرفي: السيف.

(5) المجرة: نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء. والقتير: الشيب يعلو مفرق الرأس.

(6) الثواء: الاقامة بمكان. والتوى الهلاك.

تخوفني طول السفار وانه ... لتقبيل كف العامري سفير

ذريني أرد ماء المفاوز آجنا ... الى حيث ماء المكرمات نمير (1)

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبري منها أنة وزفير

تناشدني عهد المودة والهوى ... وفي المهد مبغوم النداء صغير (2)

عيي بمرجوع الخطاب ولحظه ... بموقع أهواء النفوس خبير (3)

تبوأ ممنوع القلوب ومهدت ... له أذرع محفوفة ونحور

عصيت شفيع النفس فيه وقادني ... رواح لتدآب السرى وبكور

وطار جناح البين بي وهفت بها ... جوانح من ذعر الفراق تطير

لئن ودعت مني غيورا فانني ... على عزمتي من شجوها لغيور

ومنها:

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلألا في العلا وبدور

من الحميريين الذين أكفهم ... سحائب تهمى بالندى وبحور

همو صدقوا بالوحي حين أتاهم ... وما الناس إلا عابد وكفور

مناقب يعيا الوصف عن كنه قدرها ... ويرجع عنها الوهم وهو حسير (4)

ألا كل مدح عن نداك مقصر ... وكل رجاء في سواك غرور

---

(1) الماء الآجن: الكدر. والنمير: الصافي العذب.

(2) مبغوم النداء: لا يفصح بما يحدث به.

(3) العيي: من لا يستطيع الكلام.

(4) الحسير: الكليل الضعيف.

4 - أبو عمر يوسف بن هرون الرمادى

قال يصف النيلوفر[1] :

اذا سقى الله روضة مطرا ... فخص بالسقى كل نيلوفر
تستر أوراقه زمرده ... ليلا وعند النهار لا تستر
خافت عليه اللصوص فاشتملت ... عليه ليلا من خوف أن يظهر
اذا الزنابير[2] من مغالقه[3] ... لم تحتفظ فبينها تقبر[4]
كأن أجفانه جفون الذى ... أهواه لا تستطيع أن تسهر
كأنها كؤوس فضة فرشت ... قيعانها بالزمرد الاخضر
تنعم فى حسنه ونكهته ... فأنت فى منظر وفى مخبر

وقال أيضا يصف الربيع ويمدح أبا على القالى البغدادى :

فى اثرها وقعت ملاحم تجتلى ... التاريخ بين سحائب ومحول[5]
فكأنها جيش بدهم خيول ... غاز الى جيش بشهب خيول[6]

(1) النيلوفر: ينبت فى المياه الراكدة له أصل كالجزر وساق أملس يطول حسب عمق الماء فاذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر.

(2) الزنابير: جمع زنبور وهى النحل.

(3) مغالقه: المراد انغلاق أوراقه ليلا.

(4) تقبر: تموت ويسمى النيلوفر قاتل النحل لطلبها أبدا أكل ما داخل أوراقه فربما فعلت ذلك وقت انغلاقه فامتنعت من الخروج.

(5) المحول: جمع محل وهو انقطاع المطر ويبس الارض.

(6) شبه السحاب فى اسودادها بالخيل الدهم، والارض فى ابيضاضها قبل النبات بالخيل الشهب.

قامت رواعدها بطبـــــول في حربها وبروقها بنصول

ولت جنود المحل ثم تحصنت في قلب كل متيم معذول

بكت السحاب على الرياض فحسنت منها عروسا من دموع ثكول

فكأنها والطل يشرق فوقها وشى يحاك بلؤلؤ مفصول

غلبت على شمس النهار فألبست منها ظهيرتها ثياب أصيل

فنزلت في فرش الرياض ولم يكن ليجوزها مثلى بغير نزول

سلب العمامة بيننا متعمم لطمت سوالفه يدا مغلـ(1)ـول

فوضعت في فمه فمى فعل الذى يهوى بريق حبيبه المعسول

غنى الطراة من الذباب لنابها طربا فهجن شمائلا بشمول

روض تعاهده السحاب كأنه متعاهد من علم اسماعيـ(2)ـل

وقال يصف السوسـ(3)ـن :

سوسن كالسوالف(4) البيض لاحت لمحب متيم من حبيب

قد أعارت عيوننا كل حسن وأعارت أنوفنا كل طيب

---

(1) أراد ظرف الخمر الذى تسميه العامة الكوز، شبه مقبضه فى عنقه بيدى مغلول، وعمامته فدامه.

(2) اسماعيل: هو اسم أبى على القالى.

(3) سوسن وسوسان بالالف وبدونها: نبات من الرياحين برى وبستانى الواحدة (سوسنة)

(4) السالفة: صفحة العنق عند معلق القرط وسالفة الفرس ما تقدم من عنقه.

بعضها عاشق لبعض فبعض لمحب والبعض للمحبوب

فالحبيب المبيض منها اذا اصفرّ سواه اصفرار صب كئيب

لهما ثالث أناف[1] كواش قام يحكى هواهما كالخطيب

فهما وهو فى جميع المعانى كحبيب وعاشق ورقيب

وقال يمدح ابن القرشية (عبد العزيز بن المنذر بن عبد الرحمن الناصر لدين الله):

تأمل باثر الغيم من زهرة الثرى حياة عيون متن قبل التنعم

كأن الربيع الطلق أقبل مهديا بطلعة معشوق إلى عين مغرم

تعجبت من غوص الحيا فى حشا الثرى

فأفشى الذى فيه ولم يتكلم

كأن الذى يسقى[2] الثرى صرف قهوة

ينم[3] عليه بالضمير المكتم

أرى حسناً فى صفحة قد تغيرت كبشر بدا فى الوجه بعد التجهم

ألا ياسماء الارض أعطيت بهجة تطالعنا منها بوجه مقسم[4]

---

(1) أناف: ارتفع

(2) شبه في هذا البيت افشاء الارض نوارها وخضرتها بالمطر بافشاء المرء اسراره المكتومة بالقهوة.

(3) ينم بضم النون وكسرها.

(4) وجه مقسم: محسن من القسام وهو الحسن.

وإن قالت الأرض المنعم أرضها ... لى الفضل فى فخرى عليك فسلمى [1]

فخضرة ما فيها يفوقك خضرة ... ونوارها فيها ثواقب أنجم

وإن جئتها بالشمس والبدر والحيا ... مفاخرة جاءت بأسنى [2] وأكرم

بعبد العزيز ابن الخلائف والذى ... جميع المعالى تنتمى حيث ينتمى

5 - أبو عامر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد [3]

قال فى وصف الربيع:

سهر الحيا برياضها ... فأسالها والنور نائم

حتى اغتدت زهراتها ... كالغيد بالمجج العوائم [4]

من ثيبات لم تبل ... كشف الخدود ولا المعاصم

وصغار أبكار شكت ... خجلا فعاذت بالكمائم

حييت بطوفان الحيا ... فتضاحكت والجو واجم

أصناف زهر طوقت ... دررا تذوب بكف ناظم

من باسم باك إليك ند وباك وهو باسم

---

(1) فسلمى: المراد أذعنى لها وأقرى بفضلها

(2) أسنى: أشرف وافضل

(3) هو أحمد بن عبد الملك ابن شهيد حامل لواء الشعر والبلاغة في عصره، ولد سنة 342 وتوفي فى جمادى الاولى عام 426، كان جوادا لا يأسى على فائت عزيز النفس مائلا الى الهزل يعرف الطب، وقد صلى عليه جهور ابن محمد ابن جهور.

(4) الغيد جمع غيداء وهى الفتاة الناعمة المتثنية

وقال يمدح سليمان المستعين بالله في فصل النيروز ويصف نواوير عدة:

وأتاك بالنيروز شوق حافز ... وتطلع للزور غب تطلع[1]

وافاك في زمن عجيب مونق ... وأتاك في زهر كريم ممتع

فانظر الى حسن الربيع وقد جلت ... عن ثوب نور للربيع مجزع

فكأن نرجسها وقد حشدت به ... زهر النجوم تقاربت في مطلع

أو أعين الاحباب حين تراسلت ... باللحظ تحت تخوف وتوقع

وبها البنفسج قدحكى بخضوعه ... وقنو لون في سواد مشبع

خد الحبيب وقد عضضت بجنة ... فشكا إليك بأنة وتوجع

وكأنما خيريها تحت الدجى ... بين الأزاهير قام كالمتطلع

يرجو زيارة من يحب لوعده ... كلفا فبات مراقبا لم يهجع

وقال يصف نور الباقلاء:

إن لآلئك أحدثت صلفا ... فاتخذت من زمرد صدفا

تسكن ضواتها البحور وذى ... تسكن للحسن روضة أنفا[2]

هامت بلحف الجنان فاتخذت ... من سندس في جنانها لحفا

شبهتها بالثغور من لطف ... حسبك هذا برمز من لطفا

أكل ظريف وطعم ذى أدب ... والفول يهواه كل من ظرفا

---

(1) النيروز عند الفرس: أول يوم من ايام السنة الشمسية، ويقصد به أيام الفرح عموما.

(2) روض أنف: لم يرعه احد.

ومن أحسن شعره قوله :

ومـا الان قناتى غمز حادثـة ... ولا استخف بحلمى قط انسان

أمضى على الهول قدما لا ينهنهنى ... وأنثنى لسفيهى وهـو حردان

ولا أقـارض جهـالا بجهلهـم ... والأمر أمرى والأعوان أعوان

أهيب بالصبر والشحناء ثائـرة ... وأكظم الغيظ والأحقاد نيران

وما لسانى عنـد القـوم ذو ملق ... ولا مقـالى اذا مـا قلت أدهـان

ولا أفوه بغير الحق خوف أخى ... وان تأخـر عنى وهو غضبـان

ولا أميـل على خلى فآكلـه ... اذا غرثت وبعض الناس ذؤبان

ان الفتـوة فاعلم حـد مطلبهـا ... عرض نقى ونطق فيـه تبيـان

بالعلم يفخر يوم الحفـل حامله ... وبالعفاف غداة الجمع يـزدان

6 - المعتضد ابن عبـــــ(1)ـــــاد

قال يفضل الكرم :

لقد بسط الله المكارم من كفي ... فلست - على العلات منها - أخا كف

تنادي بيوت المال - من فرط بذلها - ... يميني : «قد اسرفت ظالمتي كفي»

أتغري يميني بالسماح فتنهمي ... ولا ترتضي خلا يقول لها : يكفي

لعمرك، ما الاسراف في طبيعة ... ولكن طبع البخل عندي كالحتف

وقال :

لعمرك اني - بالمدامة - قوال، ... واني - لما يهوى الندامى - لفعال

واني - للخل الخليل - لناعش ... واني - للقتل المناوي - لقتال

قسمت زماني - بين كد وراحة - ... فللرأي أسحار، وللطيب آصال

فأمسي - على اللذات واللهو - عاكفا ... واضحي - بساحات الرياسة - أختال

ولست - على الادمان - أغفل بغيتي ... من المجد، اني - في المعالي - لمحتال

اذا نام اقوام على المجد - ضلة - ... أسهد عيني أن تنام بي الحال

وان راق اقواما - من الناس - منطق ... يروق، بدا مني مقال وافعال

---

(1) استولى القاضي أبو القاسم اسماعيل على اشبيليـة مستبدا بعد فرار القاسم بن حمود عن قرطبة وانتزع قرطبة من «ابن زيري» الذي ولاه عليها «القاسم بن حمود» ثم مات سنة 433 فخلفه ابنه «عباد» الملقب بالمعتضد وعظم شأنه وتغلب على غرب الأندلس ومات سنة 461 .

وقال :

وليل أدمنا فيه شرب مدامة الى أن بدا للصبح فى الليل تأثير

وجاءت نجوم الصبح تضرب فى الدجى

فولت نجوم الليل والليل مقهور

فحزنا -من اللذات- أطيب طيبها ولم يعدنا هم ولا عاق تكدير

خلا أنه -لو طال- دامت مسرة ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير

وقال :

رعى الله من يصلى فؤادى بحبه سعيرا وعينى منه فى جنة الخلد

غزالية العينين شمسية السنا كثيبية الردفين غصنية القد[1]

شكوت اليها حبها بمدامعى وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد

فصادف قلبى قلبها - وهو سالم - فأعدى، وذو الشوق المبرح قد يعدى

فجادت - وما كادت - على بخدها وقد ينبع الماء النمير من الصلد

فقلت لها : «هاتى ثناياك اننى أفضل نوار الاقاحى على الورد

وميلى على جسمى بجسمك» فانثنت تعيد الذى أملت منها كما تبدى

عناقا ولثما أرويا الشوق بيننا -فرادى ومثنى- كالشرار من الزند

فيا ساعة - ما كان أقصر وقتها لدى - تقضت غير مذمومة العهد.

---

(1) الكثيب من الرمال: تلالها وهضابها. شبه الردفين بها فى الامتلاء والضخامة، كما شبه القد بالغصن فى الرقة والاعتدال.

7 - المعتمد ابن عباد (1)

قال حين خرج من مالقة مستعتبا لأبيه؛ منها:

سكن فؤادك لا تذهب به الفكر ... ما ذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها ... واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وان يكن قدر قد عاق عن وطر ... فلا مرد لما ياتى به القدر
وان تكن خيبة فى الدهر واحدة ... فكم غدوت ومن أشياعك الظفر
ان كنت فى حيرة من جرم مجترم ... فان عذرك - فى ظلمائها - قمر
كم زفرة - فى شغاف القلب - صاعدة ... وعبرة من شئون العين تنحدر
فوض الى الله مما أنت خائفه ... وثق بمعتضد بالله يغتفر
ولا ترعك خطوب ان عدا زمن ... فالله يدفع والمنصور ينتصر
واصبر، فانك من قوم أولى جلد ... - اذا أصابتهم مكروهة - صبروا
من مثل قومك - والملك الهمام أبو ... عمرو أبوك - له مجد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مقتدرا ... ويستقل عطاياه ويحتقر
له يد كل جبار يقبلها ... لولا نداه لقلنا أنها «الحجر»

---

(1) تولى الملك بعد ابيه المعتضد وعظم شأنه حتى استولى على دار الخلافة بقرطبة من يد «ابن جهور» وكان شاعرا مجيدا ثم غلبه على ملكه «يوسف ابن تاشفين» سنة 484 وأخذ اسيرا ونفى الى بلاد المغرب وبقى بها حتى مات.

ومما قاله من الشعر عند موته وأمر أن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد[1]

بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت بالخصب ان أجدبوا بالري للصادى

بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادى

بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى

نعم هو الحق حاباني به قدر من السماء فوافاني لميعاد

ولم أكن قبل ذلك النعش أعلمه ان الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد

يبكى أخاه الذى غيبت وابله تحت الصفيح بدمع رائح غادى

حتى يجودك دمع الطل منهمر من أعين الزهر لم تبخل باسعاد

ولا تزل صلوات الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد

وقال وقد دخل عليه فى سجنه بناته يوم عيد فى أطمار بالية :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد فى أغمات مأسورا

ترى بناتك فى الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

أفطرت فى العيد لا عادت إساءته فكان فطرك للأكباد تفطيرا

قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا

---

(1) الرائح الغادي : السحاب الذى يروح ويغدو.

من بات بعدك فى ملك يسرّ به ... فانما بات بالأحلام مغرورا

وقال يخاطب «ابن عمار» :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر ... وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

وسلم على قصر «الشراجيب» من فتى ... لــــه أبدا شوق الى ذلك القصر

منازل آساد وبيض نواعم ... فناهيك من غيل وناهيك من خدر

وكم ليلة قدبت أنعم جنحها ... بمخصبة الارداف مجدبة الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتى ... فعال الصفاح البيض والاسل السمر

وليل بسد النهر لهوا قطعته ... بذات سوار مثل منعطف البدر

نضت بردها عن غصن بان منعم ... نضير كما انشق الكمام عن الزهر

وكتب يرد على ابن عمار ويصفح عنه :

لدى لك العتبى تراح من العتب ... وسعيك عندى لا يضاف الى ذنبى

وأعزز علينا أن تصيبك وحشة ... وآنسك ما نددريه فيك من الحب

فدع عنك سوء الظن بى وتعدّه ... الى غيره فهو الممكن فى القلب

قريضك قد أبدى توحش جانب ... فراجعت تأنيسا وعلمك بى حسبى

تكلفته أبقى، به لك سلوة ... وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

---

8 - ابن وهبون (1)

قال يصف النيلوفر (2):

وبركة تزهو بنيلوفر نسيمه يشبه روح الحبيب

حتى اذا الليل دنا وقته ومالت الشمس لعين المغيب

أطبق جفنيه على الفه وغاص فى الماء حذار الرقيب

ومن شعره:

علل فؤادك قد أبل عليل واغنم حياتك فالبقاء قليل

لو أن عمرك ألف عام كامل ما كان حقا أن يقال طويل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا فالعقل عندى أن تزول عقول

وقال:

ان سرت عنك ففى يديك قيادى أو بنت عنك فما يبين فؤادى

صيرت فكرى فى بعادك مؤنسى وجعلت لحظى من بعادك زادى

وعلى أن أذرى دموعى إن أنا أبصرت شبهك فى سبيل بعادى

كم فى طريقى من قضيب يانع أبكى عليه ومن صباح بادى

تلقاك فى طى النسيم تحيتى ويصوب فى ديم الغمام ودادى

---

(1) هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسى الاندلسى من شعراء شرقى الاندلس، وكان خدم المعتمد ابن عباد من ملوك الطوائف بعلمه وشعره

(2) نبات مائى لا يزهر إلا اذا ارتفعت سيقانه الى سطح الماء

9 - ابن زيـــدون (1)

قال يتحسر على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الألم والوجد وبعث بها الى ولادة يستعطفها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا، فما ابتلت جوانحنا ... شوقا اليكم، ولاجفت مآقينا (2)

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا (3)

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا، وكانت بكم بيضا ليالينا (4)

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا

واذ هصرنا غصون الانس دانية ... قطوفها، فجنينا منه ماشينا (5)

ان الزمان الذى ما زال يضحكنا ... أنسا بقربكم قد عاد يبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغص، فقال الدهر : آمينا !

---

(1) ابو الوليد أحمد بن عبدالله المخزومى الأندلسى القرطبى الشهير بابن زيدون أحد شعراء الأندلس وكتابها ووزرائها ولد بمدينة قرطبة سنة 394 وكان من أشياع ابن جهور ثم غضب عليه وسجنه ففر الى أشبيلية وبقى بها حتى مات سنة 463.

(2) الجوانح، جمع جانحة. وهى الضلع، والمراد بالجوانح: ما تحتها من القلب والحشا الملتهب بالحب. وقوله: (ولاجفت مآقينا) اى ما جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم.

(3) التأسى : التصبر.

(4) حالت استحالت من بيض الى سود.

(5) هصرنا : املنا الى ناحيتنا.

وقد نكون، وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن، وما يرجى تلاقينا

لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم ... رأيا، ولم نتقلد غيره دينا

ياساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا

ويانسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيا كان يحيينا

ياروضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا (1)

ويانعيما خطرنا من غضارته ... في وشي نعمى سحبنا ذيلها حينا (2)

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ... وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

اذا انفردت وماشوركت في صفة ... فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا

ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا (3)

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قدغض من أجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

---

(1) النسرين نوع من الورود أكثر ما يكون أبيض الزهر عطر الرائحة.

(2) خطر الرجل في مشيته: رفع يديه ووضعهما عجبا وتيها. والغضارة: النعمة والسعة والخصب. والوشي نوع من الثياب الحريرية المنقوشة.

(3) السلسل: الماء العذب البارد. والكوثر: الكثير من كل شيء، والنهر، ونهر في الجنة. والزقوم المذكور في القرآن الكريم، يراد به ضرب من العذاب في النار جاء تمثيله بانه طعام شجرة تكون في أصل الجحيم هذا اسمها. والغسلين: ما يغسل من الثياب ونحوها. وغسلين النار: ما ينغسل من جلود الكفار فيها.

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا   مكتوبة، وأخذنا الصبر تلقينا

نأسى عليك اذا حثت مشعشعة   فينا الشمول وغنانا مغنينا (1)

لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا   سيمى ارتياح، ولا الأوتار تلهينا

دومى على العهد ما دمنا محافظة   فالحر من دان إنصافا كما دينا

وقال وهو فى السجن متألما ومتوجعا:

ما على ظنى باس   يجرح الدهر وياسو (2)

ربما أشرف بالمر   ء على الآمال ياس

ولقد ينجيك إغفا   ل ويرديك احتراس (3)

والمحاذير سهام   والمقادير قياس (4)

ولكم أجدى (5) قعود   ولكم أكدى (6) التماس

وكذا الدهر اذا ما   عز ناس ـ ذل ناس

وبنو الأيام أخيا (7)   ف سراة وخساس

نلبس الدنيا ولكن   متعة ذاك اللباس

إن قسا الدهر فللما   ء من الصخر انبجاس (8)

---

(1) الشمول: من اسماء الخمر. والمشعشعة: المزوجة بالماء.

(2) يداوى. (3) يؤذيك. (4) جمع قوس على فعال وأصله قواس قلبت الواوياء لمناسبة الكسرة (5) أجدى ـ أغنى وأفاد (6) أخفق ولم يفز.

(7) أخياف ـ مختلفون.

(8) الانبجاس: التشقق ينبع منه الماء.

ولئن أمسيت محبـو ... سا فللغيث احتبـاس

يلبد[1] الـورد السبنتى ... ولـه بعـد افتـراس

فتأمـل كيـف يغشى ... مقلـة المجـد النعـاس

ويفت المسك فى التر ... ب فيوطـا ويـداس

وقال يتشوق الى ولادة بنت المستكفى:

إنى ذكـرتـك بالزهراء مشتاقـا ... والافق طلق ووجه الارض قد راقا[2]

وللنسيم اعتـلال فى أصائلـه ... كأنمـا رق لى فاعتـل إشفـاقـا

والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما شققت عن اللبـات[3] أطواقا[4]

يوم كأيـام لذات لنـا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهـر سراقا

نلهو بما يستحيل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه اذ عاينت أرقى ... بكت لما بى فجال الدمع رقراقا

ورد تألـق فى ضاحى منابتـه ... فازداد منه الضحى فى العين إشراقا

سرى ينافحـه نيلوفـر عبق ... وسنان نبه منه الصبـح أحداقـا

كـل يهيـج لنـا ذكـرى تشوقنا ... اليك لم يعدعنها الصدر ان ضاقا

لو كـان وفى المنى فى جمعنا بكم ... لكـان من أكرم الايام أخلاقا

---

(1) يلبد : يبقى فى عرينه ـ والورد ـ الاسد والسبنتى ـ الجرىء.

(2) راق : حسن. (3) اللبات: موضع القلادة من الصـدر.

(4) أطواقا : ما يحيط بالعنق من الحلى

لا سكن الله قلبا عن ذكركم　　فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى　　وافاكم بفتى أضناه ما لاقى

ياعلقي الأخطر الأسنى الحبيب الى

نفسي اذا ما اقتنى الأحباب أعلاقا

كان التجاري بمحض الود من زمن　　ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا

فالآن أحمد ما كنا لعهدكم　　سلوتم وبقينا نحن عشاقا

* * *

10 - ابن عبدون

قال في رثاء دولة بني الأفطس ملوك بطليوس :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر　　فما البكاء على الاشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة　　عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وان أبدى مسالمة　　والبيض والسود مثل البيض والسمر

فلا تغرنك من دنياك نومتها　　فما صناعة عينيها سوى السهر

تسر بالشيء لكن كي تغر به　　كالأيم ثار الى الجاني من الزهر

كم دولة وليت بالنصر خدمتها　　لم تبق منها وسل ذكراك عن خبر

وليتها إذ فدت عمرا بخارجة　　فدت عليا بمن شاءت من البشر

وأوثقت في عراها كل معتمد　　وأشرقت بقذاها كل مقتدر

وروعت كل مأمون ومؤتمن　　وأسلمت كل منصور ومنتصر

بنى المظفر والايام (لا نزلت) مراحل والورى منها على سفر

سحقا ليومكم يوما ولا حملت بمثله ليلة فى غابر العمر

من للأسرة أو من للأعنة، أو من للأسنة يهديها الى الثغر

من للبراعة، او من لليراعة، أو من للسماحة او للنفع والضرر

أو دفع كارثة، او قمع حادثة أو ردع آزفة تعيى على القدر

ويح السماح وويح البأس لو سلما واحسرة الدين والدنيا على عمر!

***

11 ـ أبو بكر محمد بن عمار (1)

من قوله فى استعطاف المعتمد ابن عباد:

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية فأنت الى الادنى من الله أجنح

حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع عداتى، وان أثنوا على وأفصحوا

وما ذا عسى الاعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبى واضح متصحح

نعم لى ذنب ! غير أن لحلمكم صفاة يزل الذنب عنها فيسفح (2)

وإن رجائى أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا؟ وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح

---

(1) هو أبو بكر محمد بن عمار وزير المعتضد بن عباد ملك اشبيلية، ثم وزير ابنه المعتمد وبيد المعتمد قتل خيانة له في الملك والسياسة سنة 477هـ وكان شاعرا بليغا يتشبه بالمتنبى فى مطامعه فى الملك والدولة .

(2) اى ان حلمه كالصخرة الملساء يزل وينزل عنها الذنب.

ألا إن بطشا المؤيد يتقى ... ولكن حلما المؤيد أرجح

وبين ضلوعى من هواه تميمة ... ستنفع لو أن الحمام مجلح[1]

سلام عليه كيف دار به الهوى: ... الى فيدنو، أو على فينزح[2]

ويهنيه إن مت السلو، فاننى ... أموت، ولى شوق اليه مبرح

وكتب اليه أيضا:

أصدق ظنى أم أصيخ الى صحبى ... فأمضى عزمى أو أعوج مع الركب

وإنى لتهفو بى اليك مودة ... يعثرها ما قد تعرض من ذنبى

وما أغرب الايام فيما قضت به ... تريني بعدى عنك أنى من قربى

أهابك للحق الذى لك فى دمى ... وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى

ولى حسنات لو أمت ببعضها ... الى الدهر لم يرتع لنائبه سربى

وكم قد فرت يمناى بى من ضريبة ... فلا غرو يوما أن تقال من غربى

ولا بد ما بينى وبينك من نشا ... يطبقها ما بين شرق الى غرب

ولا شك أن العفو منك سجية ... فلم يبق الا أن تخفف من عتبى

وقال أيضا:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى

---

(1) التميمة: خرزة رقطاء كان الاعراب يعلقونها في أعناق أطفالهم لتقيهم شر العين والشياطين. والمجلح: الأكول. والمعنى فى قلبى له حب سينفعنى ويشفع عنده اذا أراد الموت اكلي.

(2) ينزح: يبعد.

والصبح قد أهدى لنا كافوره   لما استرد الليل منا العنبرا

والروض كالحسنى كساه زهره   وشيا وقلده نداه جوهرا

أو كالغلام زهى بورد رياضه   خجلا وتاه بآسهن معذرا

روض كأن النهر فيه معصم   صاف أطل على رداء أخضرا

وتهزه ريح الصبا فتخاله   سيف ابن عباد يبدد عسكرا

عباد المخضر نائل كفه   والجو قد لبس الرداء الأغبرا

علق الزمان الأخضر المهدى لنا   من ماله العلق النفيس الأخطرا

ملك اذا ازدحم الملوك بمورد   ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر الندى   وألذ فى الاجفان من سنة الكرى

يختار اذ يهب الخريدة كاعبا   والطرف أجرد والحسام مجوهرا

قداح زند المجد لا ينفك عن   نار الوغى الا الى نار القرى

لا خلق أقرأ من شفار حسامه   ان كنت شبهت المواكب أسطرا

أيقنت أنى من ذراه بجنة   لما سقانى من نداه الكوثرا

وعلمت حقا أن ربعى مخصب   لما سألت به الغمام الممطرا

من لا توازنه الجبال اذا احتبى   من لا تسابقه الرياح اذا جرى

ماض وصدر الرمح يكهم والظبى   تنبو وأيدى الخيل تعثر فى البرا

فاذا الكتائب كالكواكب فوقهم   من لامهم مثل السحاب كنهورا

من كل أبيض قد تقلد أبيضا   عضبا وأسمر قد تأبط أسمرا

ملك يروقك خلقه أو خلقه ... كالروض يحسن منظرا أو مخبرا

أقسمت باسم الفضل حتى شمته ... فرأيته فى بردتيه مصورا

وجهلت معنى الجود حتى زرته ... فقرأته فى راحتيه مفسرا

فاح الثرى متعطرا بثنائه ... حتى حسبنا كل ترب عنبرا

وتتوجت بالزهر صلع هضابه ... حتى ظننا كل هضب قيصرا

هصرت يدى غصن الندى من كفه ... وجنت به روض السرور منورا

حسبى على الصنع الذى أولاه أن ... أسعى بجد أو أموت فأعذرا

يا أيها الملك الذى حاز المنى ... وحباه منه بمثل حمدى أنورا

السيف أفصح من زياد خطبة ... فى الحرب إن كانت يمينك منبرا

ما زلت تغنى من عنى لك راجيا ... نيلا وتفنى من عتا وتجبرا

حتى حللت من الرياسة محجرا ... رحبا وضمت منك طرفا أحورا

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد ... الا اليهود وإن تسمت بربرا

أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم ... لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء ملوكهم ... لما علمت الحسن يلبس أحمرا

نمقتها وشيا بذكرك مذهبا ... وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا

من ذا ينافحنى وذكرك صندل ... أو ردته من نار فكرى مجمرا

فلئن وجدت نسيم حمدى عاطرا ... فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

وإليكها كالروض زارته الصبا ... وحنى عليه الطل حتى نورا

12 - أبو بكر ابن اللبانة (1)

قال فى رثاء بنى عباد :

تبكى السماء بمزن رائح غاد على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التى هدت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

والرابيات عليها اليانعات ذوت أنوارها فغدت فى خفض أوهاد

عريسة دخلتها النائبات على أساويد لهم فيها وآساد

وكعبة كانت الآمال تخدمها فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

نسيت إلا غداة النهر كونهم فى المنشآت كأموات بألحاد

والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا فى لؤلؤ طافيات فوق أزباد

حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد

سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها إبل يحدو بها الحادى

كم سال فى الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد

وقال ايضا فى بنى عباد بعد نكبتهم :

أستودع الله أرضا عند ما وضحت بشائر الصبح فيها بدلت حلكا

كان المؤيد بستانا بساحتها يجنى النعيم وفى عليائها فلكا

---

(1) وابن اللبانة = هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمى المعروف بابن اللبانة من فحول القواد غزير الادب وله تواليف منها : «مناقل الفتنة» وكتاب «نظم السلوك فى وعظ الملوك» توفى بميورقة سنة 517

في أمره لملوك الدهر معتبر   فليس يغتر ذو ملك بما ملكا

نبكيه من جبل خرت قواعده   فكل من كان في بطحائه هلكا

وقال وقد رأى فخر الدولة ابن عباد يشتغل في دكان صائغ بعد نكبتهم :

أذكى القلوب أسى أبكى العيون دما   خطب وجدناك فيه تشبه العدما

أفراد عقد المنى منا قد انتثرت   وعقد عروتنا الوثقى قد انفصما

شكاتنا فيك يافخر العلا عظمت   والرزء يعظم فيمن قدره عظما

طوقت من نائبات الدهر مخنقة   ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما

وقال مجيبا المعتمد على قصيدته التي أولها (رد بري بغيا علي) :

أيها الماجد السميدع عذرا   صرفي البر إنما كان برا

حاش لله أن أجيح كريما   يتشكى فقرا وكم سد فقرا

لا أزيد الجفاء فيه شقوقا   غدر الدهر بي لأن رمت غدرا

ليت لي قوة أو آوي لركن   فترى للوفاء مني سرا

أنت علمتني السيادة حتى   ناهضت همتي الكواكب قدرا

ربحت صفقة أزيل برودا   عن أديمي بها وألبس فخرا

وكفاني كلامك الرطب نيلا   كيف ألقى درا وأطلب تبرا

لم تمت إنما المكارم ماتت   لا سقى الله الارض بعدك قطرا

13 - ابن خفاجة الاندلسى (1)

قال فى الاعتبار ويصف ليلا وجبلا :

بعيشك هل تدرى أهوج الجنائب ... تخب برحلى أم ظهور النجائب؟ (2)

فما لحت فى أولى المشارق كوكبا ... فأشرقت حتى جئت أخرى المغارب

وحيدا تهادانى الفيافى فأجتلى ... وجوه المنايا فى قناع الغياهب

ولا جار الا من حسام مصمم ... ولا دار الا فى قتود الركائب (3)

ولا أنس الا أن أضاحك ساعة ... ثغور الامانى فى وجوه المطالب

وليل اذا ما قلت : قد باد فانقضى ، ... تكشف عن وعد من الظن كاذب

سحبت الدياجى فيه سود ذوائب ... لأعتنق الآمال بيض ترائب

فخرقت جيب الليل عن شخص أطلس ... تطلّع وضّاح المضاحك قاطب (4)

رأيت به قطعا من الفجر أغبشا ... تأمل عن نجم توقد ثاقب (5)

---

(1) هو أبو اسحاق ابراهيم ابن خفاجة الاندلسى ولد بمدينة شقر أو جزيرة شقر وعاش من 450 الى 533هـ. ويعتبر ابن خفاجة شاعر الطبيعة.

(2) هوج الجنائب: الرياح الجنوبية الهوجاء، والنجائب: جمع نجيبة الناقة الكريمة. (3) القتود: اخشاب الرحال.

(4) اطلس: أى شخص افق اطلس، والأطلس : الذى فى لونه غبرة الى سواد، وهو وضاح المضاحك من جهة انه تتراءى فى خلاله اشعة الفجر، وقاطب من حيث أنه لا يزال عليه من غبش الليل بقية.

(5) اى رايت به قطعا اغبش من الفجر لا يزال يبدو فيه نجم متوقد ثاقب، وهو الزهرة او عطارد لانهما من كواكب الصباح يكونان بالتبادل على الافق عند طلوع الفجر

وأرعن طماح الذؤابة باذخ   يطاول أعنان السماء بغارب (1)

يسد مهب الريح عن كل وجهة   ويزحم ليلا شهبه بالمناكب

وقور على ظهر الفلاة كأنه   طوال الليالى مفكر فى العواقب

يلوث عليه الغيم سود عمائم   لها من وميض البرق حمر ذوائب (2)

أصخت اليه، وهو أخرس صامت   فحدثنى ليل السرى بالعجائب

وقال: الى كم كنت ملجأ قاتل   وموطن أواه تبتل تائب (3)

وكم مر بى من مدلج ومؤوب   وقال بظلى من مطى وراكب

ولاطم من نكب الرياح معاطفى   وزاحم من خضر البحار غواربى (4)

فما كان الا أن طوتهم يد الردى   وطارت بهم ريح النوى والنوائب

فما خفق أيكى غير رجفة أضلع   ولا نوح ورقى غير صرخة نادب (5)

وما غيض السلوان دمعى، وانما   نزفت دموعى فى فراق الصواحب

وحتى متى أبقى؟ ويظعن صاحب   أودع منه راحلا غير آئب

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا؟   فمن طالع أخرى الليالى وغارب

---

(1) ارعن ورب جبل ارعن طويل القمم يطاول السماء بكاهله.

(2) يلوث: يلف ويعمم على رأسه من الغيم عمائم سوداء لها بروق حمر.

(3) يريد بالاواه: التائب الراهب الذى يبنى صومعته فى رؤوس الجبال.

(4) النكب: جمع نكباء، وهى الريح تهب بين مهبى ريحين، ومعاطفى وغواربى: يريد بهما جوانبى واظهرى.

(5) اى خفق غصن ايكى، والايك: اسم جمع لأيكة، وهى الاشجار المتكاثفة، والورق: جمع ورقاء وهى الحمامة.

فرحماك يامولاى دعوة ضارع ... يمد الى نعماك راحة راغب!
فأسمعنى من وعظه كل عبرة ... يترجمها عنه لسان التجارب
فسلى بما أبكى وسرى لما شجا ... وكان على عهد السرى غير صاحب
وقلت، وقد نكبت عنه لطية ... سلام! فإنا من مقيم وذاهب (1)

وقال فى طول الليل:

ياليل وجد بنجد ... أما لطيفك مسرى
وما لدمعى طليقا ... وأنجم الجو أسرى
وقد طمى بحر ليل ... لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه ... غير المجرة جسرا

وقال يصف زهرة:

ومائسة تزهى وقد خلع الحيا ... عليها حلى حمرا وأردية خضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضة ... ويجمد فى أعطافها ذهبا نضرا

وقال يصف نهرا ينساب فى أحد المروج وقد تعرج مجراه وتعددت مناظره:

لله نهر سال فى بطحاء! ... أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه، مجر سماء

(1) نكبت عنه: ملت عنه وانصرفت، والطية: الحاجة والقصد ووجهة المسافر، ومن في (من مقيم) زائدة أو بيانية، أي فانا من بين مقيم وهو انت، وذاهب وهو نحن.

قد رق حتى ظن قرصا مفرغا ... من فضة فى بردة خضراء

وغدت تحف به الغصون كأنها ... هدب يحف بمقلة زرقاء

والماء أسرع جريه متحدرا ... متلويا كالحية الرقطاء

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين الماء

وقال يصف بلاد الاندلس :

يا أهل أندلس لله دركم ... ماء وظل وأنهار وأشجار

ما جنة الخلد الا فى دياركم ... ولو تخيرت هذى كنت أختار

وقال أيضا :

إن للجنة بالأندلس ... مجتلى عين وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب ... ودجى ليلتها من لعس

فاذا ما هبت الريح صبا ... صحت:واشوقى الى الاندلس

وقال يصف طيفا ألم به فى ليلة طويلة :

ورداء ليل بات فيه معانقى ... طيف ألمّ لظبية الوعساء

فجمعت بين رضابه وشرابه ... وشربت من ريق ومن صهباء

ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة ... شفقا هناك لوجنة حمراء

والليل مشمط الذوائب كبرة ... خرف يدب على عصا الجوزاء

ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ... ويجر من طرب فضول رداء

تندى بفيه أقحوانة أجرع ... قد غازلتها الشمس غب سماء

وتميس فى أثوابه ريحانـــة كرعت على ظمأ بجدول ماء
نفاحة الأنفاس الا أنهـــا حذر النوى خفاقة الأفيـــاء
فلويت معطفها اعتناقاً حسبها فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء

***

14 - حمدة بنت زياد (1)

من عجيب قولها :

ولما أبى الواشون الا فراقنا وما لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيك وأدمعى ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

وقالت تصف واديا :

وقانا لفحـــة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينـــا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

(1) هى حمدة بنت زياد من وادى آش وتعتبر خنساء المغرب، وقد نسبت الابيات (وقانا لفحة الرمضاء) الى المنازى من شعراء المشرق ولكنها وجدت فى دواوين الأندلس منسوبة لحمدة قبل أن يخلق المنازى.

15 - ابن سهل الأندلسى (1)

قال :

سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى

تدرى النجوم كما يدرى الورى خبرى

أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من

دمعى وأنشق ريا ذكرك العطر

حتى أخيل أنى شارب ثمل بين الرياض وبين الكأس والوتر

من لى به ؟ اختلفت فيه الملاحة اذ أومت الى غيره إيماء محتضر (2)

معطل فالحلى منه محلأة تغنى الدرارى عن التقليد بالدرر (3)

بخده لفؤادى نسبة عجب كلاهما أبدا يدمى من النظر (4)

وقال فى توشيح له :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس

فهو فى حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

***

(1) هو الشاعر الرقيق الوشاح ابرهيم بن سهل الاشبيلى الأندلسى وكان يلقب قبل اسلامه بالاسرائلى، كان يهوديا واسلم ومات غرقا سنة 649هـ.

(2) اى تفاوتت فيه الملاحة عن نفسها عند الناس فهى فيه كاملة وفى غيره بمنزلة اشارة ضعيفة كاشارة المحتضر عند الموت. (3) محلاة : ممنوعة.

(4) أى إن فؤادى يدمى من نظرات المحبوب الرامية بسهام التأثير، وخده كأنه يدمى من حمرة الخجل عند نظرى اليه.

يابدورا أشرقت يوم النوى غررا تسلك بى نهج الغرر (1)
ما لنفسى فى الهوى ذنب سوى منكم الحسن ومن عينى النظر
أجتنى اللذات مكلوم الجوى والتذاذى من حبيبى بالفكر (2)

***

كلما أشكوه وجدى بسما كالربا بالعارض المنبجس (3)
اذ يقيم القطر فيها مأتما وهى من بهجتها فى عرس (4)

***

أيها السائل عن جرمى لديه لى جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقا للشمس فيه مغرب (5)
ذهب الدمع بأشواقى اليه وله خد بلحظى مذهب (6)

***

---

(1) الغرر: التغرير والخطر.

(2) اى وانما التذاذى من حبيب بالتفكر فيه.

(3) اى كابتسام الربا المشرقة بالازهار بعد ان سقاها العارض المنبجس: اى السحاب الهاطل.

(4) أى نزول القطر الشبيه بقطرات الدمع يقيم فى الربا مأتما ومناحة ببكائه على حين ان الربا فى اعراس من بهجتها.

(5) أى ان حمرة المشرق قبيل ظهور الشمس على الأفق وحمرة شفقها بعيد الغروب مستعارة من وجنتيه الحمراوين.

(6) أى مذهب من الخجل، وهذا المعنى مكرر جره اليه جناس الاشتقاق بين (ذهب) في اول البيت و(مذهب) في آخره.

ينبت الورد بغرسي كلما | لاحظته مقلتي في الخلس
ليت شعري أي شيء حرما | ذلك الورد على المغترس

* * *

كلما أشكو اليه حرقي | غادرتني مقلتاه دنفا
تركت ألحاظه من رمقي | أثر النمل على صم الصفا (1)
وأنا أشكره فيما بقي | لست ألحاه على ما أتلفا

* * *

فهو عندي عادل إن ظلما | وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعد ما | حل من نفسي محل النفس

* * *

منه للنار بأحشائي ضرام | تتلظى كل حين ما تشا
هي في خده برد وسلام | وهي حر وحريق في الحشا
أتقي منه على حكم الغرام | أسدا وردا وأهواه رشا

* * *

قلت لما أن تبدى معلما | وهو من ألحاظه في حرس :
أيها الآخذ قلبي مغنما | اجعل الوصل مكان الخمس (2)

(1) أي اثرا ضعيفا لان النمل لا يؤثر مشيه في الصخرة الملساء.
(2) أي ان الجيش الفاتح لا ياخذ كل الغنيمة، بل يكون خمسها للدولة تنفقه في مصالح الناس وصدقاتهم .

16 - أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرصافى(1)

قال يمدح عبد المومن بن على :

لو جئت نور الهدى من جانب الطور

قبست ما شئت من علم ومن نـور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها

ليـــلا لسار ولم تشبب لمقهور

فيضية القدح من نور النبوة أو — نور الهداية تجلو ظلمة الزور

يادار دار أمير المؤمنين بسفح — الطود طود الهدى بوركت في الدور

ذات العمادين من عز ومملكة — على الأساسين من قدس وتطهير

ما كان ياتيك بالوانى الكرامة عن — قصر على مجمع البحرين مقصور

مواطىء من نبى طالما وصلت — فيها الخطا بين تسبيح وتكبير

حيث استقلت به نعلاه بوركتا — فطيبت كل موطوء ومعبور

وحيث قامت قناة الدين ترفل فى — لواء نصر على البرين منشور

تسنم الفلك من سخط المرار وقد — تؤدين ياخير أفلاك العلا سيرى

---

(1) هو الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرصافى وكان مستوطنا مدينة مالقة أنشد هذه القصيدة عبد المؤمن بن على يوم دخوله جبل طارق وكان الشاعر وقتئذ لم يتجاوز عشرين سنة ويعتبر الرصافي من فحول شعراء عصره.

فسرن يحملن أمر الله من ملك ... بالله مستنصر فى الله منصور
يومى له بسجود كل تحركة ... منها ويوليه حمدا كل تصرير
لما تسابقن فى بحر الزقاق به ... تركن شطيه فى شك وتحيير
أهز من موجه أثناء مسرور ... أم خاض من لجه أحشاء مذعور
كأنه سالك منه على وشل ... فى الأرض من مهج الأسياف مقطور
من السيوف التى ذابت لسطوته ... وقد رمى نار هيجاها بتسعير
ذو المنشآت الجوارى فى أجرتها ... شكل الغدائر فى سدل وتضفير
كأنما عبرت تختال عائمة ... فى زاخر من يدى يمناه معصور
حتى رمت جبل الفتحين من كثب ... بساطع من سناه غير مبهور
لله ما جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر فى الاجبال مذكور
من شامخ الأنف فى سحنائه طاس ... له من الغيم جيب غير مزرور
معبرا بذراه عن ذرا ملك ... مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمسى النجوم على إكليل مفرقه ... فى الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها ... بكل فضل على فوديه مجرور
قد واصل الصمت والاطراق مفتكرا ... بادى السكينة مغفر الأسارير
كأنه مكمد مما تعبده ... خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الأرض راجفة ... أن يطمئن غدا من كل محذور

كفاه فضلا أن انتابت مواطئه … نعلا مليك كريم السعى مشكور

مميز الجيش ملتفا مواكبه … من كل مشلول عرش الملك مقهور

من الألى خضعوا قسرا له وعنوا … لأمره بين منهى ومأمور

من بعد ما عاندوا أمرا فما تركوا … اذ أمكن العفو ميسورا لمعسور

اذا صعدت بأمر الله مجتهدا … ضربت وحدك أعناق الجماهير

لا يذهلن لتقليل أخو سبب … من الأمور ولا يركن لتكثير

فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبسا … والارض قد غرقت من فور تنور

وقال يصف نهرا باشبيلية :

ومهول الشطين تحسب أنه … متسايل من درة لصفائه

فاءت عليه مع الهجيرة سرحة … صدئت لفيئتها صفيحة مائه

فتراه أزرق فى غلالة سمرة … كالدارع استلقى بظل لوائه

وله يصف دولابا :

وذى حنين يكاد شوقا … يختلس الانفس اختلاسا

لما غدا للرياض جارا … قال له المحل لا مساس

يبتسم الروض حين يبكى … بأدمع ماراين باسا

من كل جفن يسل سيفا … صار له غمده رئاسا

وقال يصف نائما قد تصبب العرق على خديه :

ومهفهف كالغصن الا أنه … سلب التثنى النوم عن أثنائه

أضحى ينام وقد تحبب خده … عرقا فقلت الورد رش بمائه

16 ـ لسان الدين ابن الخطيب (1)

قال بين يدى السلطان أبى سالم يستصرخه لمولاه :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ، وهل أعشب الوادى ونم به الزهر

وهل باكر الوسمى دارا على اللوى

عفت آيها الا التوهم والذكر

بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى

بأكنافها والعيش فينان مخضر

وجوى الذى ربى جناحى وكره فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

نبت بى لا عن جفوة وملالة ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر

ولكنها الدنيا قليل متاعها ولذاتها دأبا تزور وتزور

أقول لأظعانى وقد غالها السرى وآنسها الحادى وأوحشها الزجر

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على بن احمد السلمانى، قرطبى الاصل ثم لوشية (وهى بلدة بالأندلس غربى البيرة بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا وبينها وبين غرناطة عشرة فراسخ). يكنى ابا عبد الله ويلقب من الالقاب المشرفة بلسان الدين الوزير الشهير الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف انواعها قرأ القرآن على أبى الحسن القيجاطى وقرأ عليه العربية ايضا ثم على ابى القاسم ابن جزى تقلد الكتابة ايام السلطان ابى الحجاج فى اخريات دولته بعد شيخه ابن الجياب وازدادت منزلته عند ابنه ابى عبد الله فلما دارت الدائرة عليه قبض على ابن الخطيب ثم تخلص من نكبته بشفاعة السلطان المستعين بالله ابى سالم ابراهيم ابن السلطان الشهير الكبير ابى الحسن المرينى صاحب المغرب.

رويدك بعد العسر يسر أن أبشرى ... بانجاز وعد الله قد ذهب العسر

اذا أنت بالبيضاء قررت منزلى ... فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر

زجرنا بابراهيم برد همومنا ... فلما رأينا وجهه صدق الزجر

بمنتخب من آل يعقوب كلما ... دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر

تناقلت الركبان طيب حديثه ... فلما رأته صدق الخبر الخبر

أطاعته حتى العصم فى قنن الربا ... وهشت الى تأميله الأنجم الزهر

قصدناك ياخير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر

كففنا بك الايام عن غلوائها ... وقد رابنا منها التعسف والكبر

ولما أتينا البحر يرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

خلافتك العظمى ومن لم يدن بها ... فايمانه لغو وعرفانه نكر

وقد كان مولانا أبوك مصرحا ... بأنك فى أبنائه الولد البر

وكنت خليقا بالإمارة بعده ... على الفور لكن كل شىء له قدر

وقاد اليك الملك رفقا بخلقه ... وقد عدموا ركن الامامة واضطروا

وزادك بالتمحيص عزا ورفعة ... وأجرا ولولا السبك ماعرف التبر

وأنت الذى تدعى اذا دهم الردى ... وانت الذى ترجى اذا أخلف القطر

وأنت اذا جار الزمان محكم

لك النقض والابرام والنهى والأمر

وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه ... مهيض ومن علياك يلتمس الجبر

غريب يرجى منك ما أنت أهله

فان كنت تبغى الفخر قدجاءك الفخر

وأنت لها ياناصر الحق فلتقم بحق فما زيد يرجى ولا عمرو

فان قيل مال مالك الدهر وافر وان قيل جيش عندك العسكر المجر

يكف بك العادى ويحيا بك الهدى

ويبنى بك الاسلام ما هدم الكفر

وقال على قبر المعتمد ابن عباد :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا ويا سراج الليالى المدلهمات

وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه الى حياتى لجادت فيه أبياتى

أناف قبرك فى هضب يميزه فتنتحيه حفيات التحيات

كرمت حيا وميتا واشتهرت علا فأنت سلطان أحياء وأموات

مارىء مثلك فى ماض، ومعتقدى أن لا يرى الدهر فى حال ولا آتى

وقال يندب نفسه فى محبسه :

بعدنا وان جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صموت

وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذى لا يفوت

ومن كان يفرح منهم له فقل يفرح اليوم من لا يموت

17 - أبو بكر ابن الأبار (1)

قال فى رثاء الأندلس مخاطبا أبا زكرياء ابن أبى حفص :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذارا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... الا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الاشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

---

(1) ابن الابار هو صاحب التكملة وقد أنشد هذه القصيدة أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد ابن أبى حفص سلطان تونس موفدا من قبل البلنسيين فأرسل السلطان اسطوله الى بلنسية ولكنها سقطت فى يد العدو ولم يستطع الاسطول إرجاعها الى حوزة المسلمين ويعتبر محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الابار من جلة علماء عصره قال عنه ابن سعيد في المغرب حامل راية الاحسان المشار اليه فى هذا الاوان .

لهفى عليها الى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثانى أصبحت درسا

وأربعا نمنمت أيدى الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا

كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النضر من أدواحها وعسا

وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا ... عيث الدبى فى مغانيها التى كبسا

وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الاسد الضارى لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها خضرا ... وأين غصن جنيناه بها سلسا

هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وانت أفضل مرجو لمن يئسا

وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الأمير الرضا والسيد الندسا

خاضت خضارة يعليها ويخفضها ... عبابه فتعانى اللين والشرسا

وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت بأقصى شده الفرسا

تؤم يحيى بن عبد الواحد ابن أبى ... حفص مقبلة من تربه القدسا

ملك تقلدت الأملاك طاعته ... دينا ودنيا فغشاها الرضا لبسا

من كل غاد على يمناه مستلما ... وكل صاد الى نعماه ملتمسا

مؤيد لو رمى نجما لأثبته ... ولو دعا أفقا لبى وما احتبسا

أمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا

يبدى النهار بها من ضوئه شنبا ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا

ماضى العزيمة والأيام قد نكلت ... طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا

كأنه البدر والعلياء هالته   تحف من حوله شهب القنا حرسا

تدبيره وسع الدنيا وما وسعت

وعرف معروفه واسى الورى وأسا

قامت على العدل والاحسان دولته   وأنشرت من وجود الجود ما رمسا

***

18 - أبو البقاء الرنـــــدى (1)

قال فى رثاء الاندلس قصيدته المشهورة التى رمى بها الى إنهاض الهمم وتحريض المسلمين للذود عن حوضهم :

لكل شيء اذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الامور كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقى على أحد   ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابغة   اذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضى كل سيف للفناء ولو   كان ابن ذى يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن   وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد فى إرم   وأين ما ساسه فى الفرس ساسان

(1) هو العلامة خاتمة ادباء الأندلس صالح بن شريف الرندى المعروف بأبى البقاء وتعتبر نونيته هذه من أروع ما قيل في المراثى مع ابداع فى النظم واحسان السبك ويظهر من قصيدته انه رأى تلك الحوادث المؤذنة بسقوط مملكة بنى الأحمر.

وأين ما حازه قارون من ذهب   وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على كل أمر لا مرد له   حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من ملك ومن ملك   كما حكى عن خيال الطيف وسنان

دار الزمان على دارا وقاتله   وأما كسرى فما آواه إيوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب   يوما ولا ملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة   وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها   وما لما حل بالاسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له   هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين فى الاسلام فارتزأت   حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية   وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه   ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما   عسى البقاء اذا لم تبق أركان

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف   كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الاسلام خالية   قد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما   فيهن الا نواقيس وصلبان

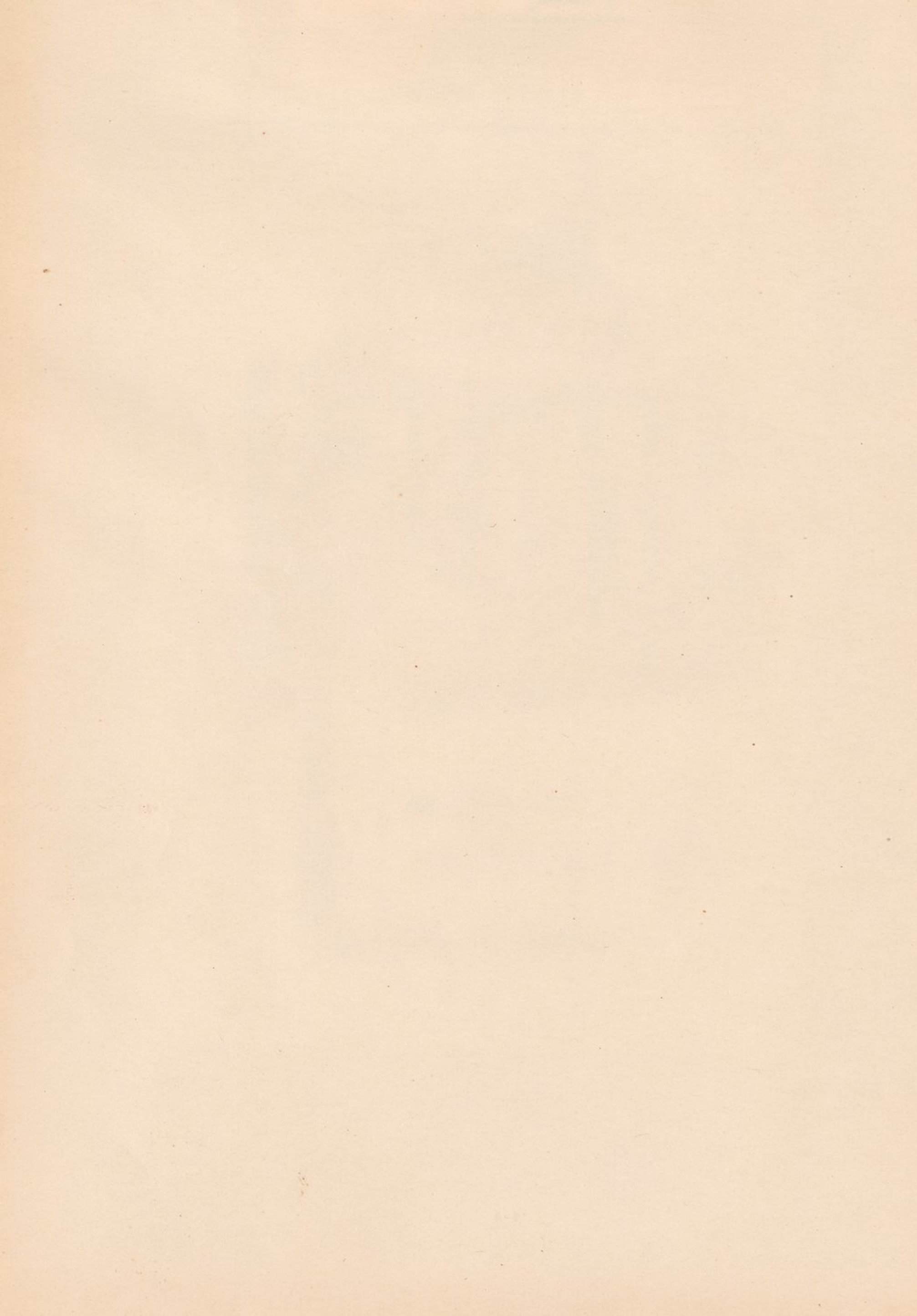
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة   حتى المنابر ترثى وهى عيدان

يا غافلا وله فى الدهر موعظة   ان كنت فى سنة فالدهر يقظان

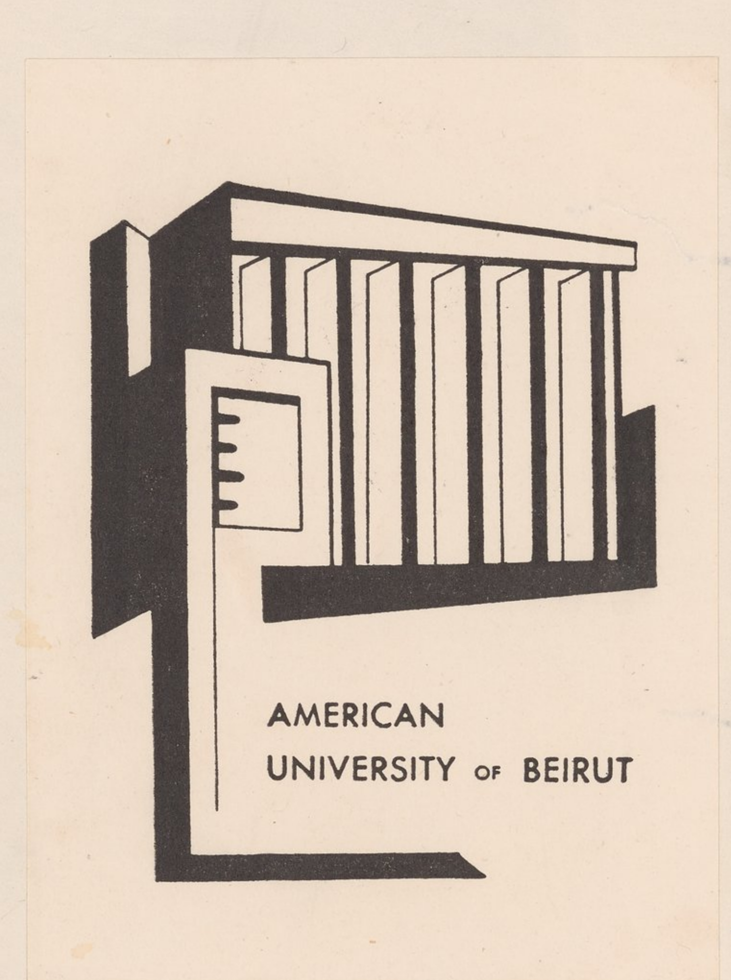
وماشيا مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز انسان
ما ذا التقاطع فى الاسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يارب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

فهرس الكتاب





DATE DUE


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

